القسم الرابع

من أمثال العاخامات وأقوالهم
ونماذج من أساطير التلمود

ويلٌ للأبناء المحرومين من مائدة أبيهم .
حفنةٌ من الطعام لا تقوم بأوَد أسد ، وتراب الحفرة لا يكفي لملئها .
ادعُ الله لنيل رحمته ، حتى يُهال الكوم الأخير من التُّراب على قبرك .
لا تكفّ عن الصّلاة حتى وإن جرت السّكين في مجرى نحرك .
لا تفتح فاكَ بكلمة سوء .
طولُ الأناة خيرٌ من وَفرة المال .
الحصان الذي يُعلَف بالشّعير على هواه يضحي حَروناً .
طُوبى للتّلميذ الذي على مقاله يُثني مُعلّمه .
من ساعة كون الخيار غضّاً يمكن الحكم على صلاحيّته لاحقاً للأكل .
لا تفعل بالآخرين ما تكره أن يفعله بك الآخرون .
يتشكّى الجحش من البرد حتى في تمّوز .
تعلّم أولاً ثم فلتعلِّم الآخرين .
قِلّةٌ من النّاس مَن يُبصرون عيوب نفوسهم .
الضوء الفرد ينير لمئة رجل كما ينير لرجل واحد .
الطعام الذي يطبخه عدّة طبّاخين لا يكون حاراً ولا بارداً[1] .
ما الحياة الدّنيا إلا عُرس .
الصّبا طاقةٌ من الزّهر .

---

(1) وفي المثل العبري السّائر : כשהטבחים מרבים נקדח התבשיל : «إذا كثُر الطبّاخون شاطَ الطعام» .

شُجيرة الآس تبقى حتى في الصّحراء شُجيرة آس .
روِّض لسانك على مقولة : «لستُ أدري» .
الدّار الذي لا يستقبل المسكين يستقبل الطبيب .
حتى الطيور في سمائها تزدري البخيل .
قرى الضّيف من علائم عبادة الرّبّ .
لصديقك صديق ، ولصديق صديقك صديق ، فكُن كتوماً .
لا تستجرّنَّ على نفسك المثالب والعيوب .
دَع عنك غشيان المزادات إن لم يكن لديك مال .
سلخ الذّبائح بأجر في قارعة الطريق خيرٌ لك من التّراخي والاستجداء .
أكثِر من التّعاطي مع ذوي الحظّ والفَلاح .
المُقدَّر في قسمة جارك لا يكون أبداً لك .
هزالة جدران دارك تُغري اللّص بسرقتك .
المكان لا يُشرّف الإنسان ، بل الإنسان يُشرّف المكان .
حتى أدنى الرّجال شأناً يكون في بيته حاكماً .
إذا أضحى الثّعلب ملكاً فانْحَنِ له .
إن كانت الكلمة في موضعها بدَرهم ، فالسّكوت في موضعه بدرهمين .
طُوبياه يقترف الذّنوب وجاره يتلقّى الصّفع .
قد يلوح للفَقر بهاءٌ على بعض النّاس ، كسرج أحمر على فرس بيضاء .
لا تستهلك ماء بئرك كلّه إن كان للنّاس فيه حاجة .
الطبيب الذي يصف الدّواء مجاناً لا قيمة لوصفته .
الوردةُ منبتُها بين الأشواك .
الخمر خمر صاحب الدّار ، أمّا الثّناء فمن نصيب السّاقي .
مَن يشوب الأشياء يضحي مَشوباً ، ومَن طابَت أعلاقُه زاد نُبلُه .
لن تجد رجلاً ضيّق الصّبر بدائنيه .
حسبُك أن تبيع مرّةً ليعدّك النّاسُ تاجراً .
لا تتغالى بتعداد مثالب جارك ، إن كان مثلُها فيك .
إن لم تجد ضالّتك في مكان ما ، فأَوْلى لك طلبُها في مكان آخر .

مَن يقرأ الرّسالة عليه أن ينفّذ ما جاء فيها .
الإناء المستخدم لغايات نبيلة لا يجوز تدنيسه في أغراض وضيعة .
أصلح شأن زينتك أولاً ثم فلتعتنِ بمظهر الآخرين .
درهمان في كيس يُجلجلان أكثر مَن مئة .
المرء يرى الذَّرّة في عين جاره ، لكنه لا يرى في عينه هو عموداً .
تنافُس العُلماء مَدعاةٌ لترقّي العلوم .
إن أفضيتَ بسرّك إلى ثلاثة ، دري به عشرة .
إبّان المودّة كان لوحُ مقعد يكفينا ، فالآن تضيق بنا ساحةٌ ذَرعُها ستّون ؟
إذا ركبت الخمرةُ مَتن الرّأس تطايرت منه أسرارُ النّفس .
إذا تكلّم كاذبٌ بصدق ، فجزاؤه عدم تصديق النّاس له .
تمنّى الجملُ قروناً ، فإذا به يفقد أذنيه .
واحَسرةً على مَن ينطفئ ذكرُه فلا يعود له ظهور .
الموظّف عند ملك يناله من التّشريف حظّ .
لا يمكن لدارس مزاولة التّجارة ، ولا لتاجر تكريس وقته للدّرس .
لا فائدة لك تُرجى من إشعال مصباحك في غَمرة ضوء الهاجرة .
ذَرِ الثّمرة من تلقاء نفسها تدعو بالخير للأوراق .
اللّحم بلا ملح لا يصلح إلا للكلاب .
لا تأخذنّك الثّقة بذاتك حتى يحين يوم مماتك .
ويلٌ لبلد فقد رئيسه ، وويلٌ لمركب لم يبقَ له ربّان .
من يُكثّر أكداس اللّحم في جسده فطعاماً للدّود يدّخرها .
اليوم قصير ، والعمل اللازم كثير ، والعامل كسول .
كُن لرؤسائك مُطيعاً ، وبالصّغار رفيقاً ، ومع النّاس أجمع وَدوداً .
الصّمت سياجٌ للحكمة .
من دون الشّريعة تنعدم الحضارة .
لكلّ امرئ يومُه لا مَحالَة .
كُن ذيلاً بين الأُسود ولا تكُن رأساً بين الثّعالب[1] .

(1) وثمّة مَثَل في التّلمود يناقضه : كُن رأساً بين الثّعالب ولا تكُن ذيلاً بين الأسود .

البئر الذي منه شُربُك لا يجدر بك أن تُلقي فيه الحجارة .
كثيراً ما يُفصَّل جلدُ الفلو سَرجاً ليوضع على ظهر أمّه .
وَطأة الحقيقة ثقيلة ، لذا قد قَلّ من يحملُها .
أقلِل من القول وأكثِر من الفعل .
مَن يُكثِر من الكلام يزداد وُلوغه في المعاصي .
ضَحِّ بمصلحتك في سبيل سواك ، تجدهم يضحّون بمصالحهم في سبيلك .
الشّريعة ادرسها اليوم ، ولا تؤخّرها لغدٍ أبداً .
لا تتّخذ صَلاتَك عبئاً ثقيلاً ، بل لتكُن ابتهالاتُك صادقة من القلب .
مَن أحبّه الخَلق أحبّه الخالق .
كَرِّم أبناء المساكين ، فبهم يُشرق للعلم بهاؤه .
لا تتّخذ لنفسك جاراً يجمع بين الصّلاح والجهل .
الفلس الصّغير في الجرّة الكبيرة مصدرٌ لقَرقعة عظيمة .
استخدم إناءك الثّمين اليوم ، فلعله ينكسر غداً .
القطّ والجرذ يتصالحان على جيفة .
مَن جالَ في أرضه كلّ يوم عثر على قطعة نقد يومياً .
الكلب يتبعك من أجل الفُتات الذي في جيبك .
الجُند يقاسون ويلات الحروب ، أما المجد فمن نصيب الملوك .
عندما يسقط الثّور يكثُر جزّاروه .
انزل عند اختيار الزّوجة خُطوةً ، وخُطوةً اصعد عند اختيار الصّديق .
اضرب الآلهة يرتعد الكَهَنة .
الشّمس من تلقاء ذاتها تغيب ، بغير معونتك .
لا تؤاخذنَّ إنساناً باللَّغْوِ في كلامه إبّان بلواه .
بعض النّاس يأكل وترى سواه يحمد الله .
الكاظمون الغَيظَ أهلٌ لمغفرة الذّنوب .
مَن يرتكب المعصية مرّتين لا يراها عُقب ذلك معصية .
يوم تحابينا كنّا ننام على حدّ سيف ، فالآن تضيق بنا أريكةٌ عرضها ستّون ؟
دراسة الشّريعة أعلى شأناً من التّضحية .

حلّ بيروشَلايْم الخراب من جَرّاء إهمال تعليم النَّشئ .
هذه الحياة يُنجيها الله بكرامة أنفاس أطفال المدارس .
حتى من أجل إقامة الهيكل لا يجوز إقفال المدارس .
طُوبى للابن الذي تفقّه على أبيه ، ومُباركٌ الأب الذي يفقّه ابنه .
تجنّب الغضب تنأ عن المعاصي ، ولا تتمادَ تنأ عن غضب الرّبّ .
عندما يُقبل الآخرون أعرِضْ وتولّ ، وعندما يفترقون فلتُقبِل .
إذا كنتَ الشاري الوحيد فاشترِ ، فإن حضر الشّارون فأمسِك .
السَّفيه لا تؤثّر فيه الشّتيمة ، كما لا يؤثّر حدّ السكّين في جسد الميت .

الدّيك والبومة يلبثان سهرانَين بانتظار الضّياء ، فيتعجّب الدّيك : «الضّوء يُبهجني ، ولكن ليتَ شعري ماذا تُراكِ تنتظرين ؟» .

السّارق الذي لا يتسنّى له سرقة شيء يدّعي في نفسه الشّرف[1] .

قال رجل جَليليّ : «إذا حلّ سخط الرّاعي على قطيعه ، عيّن عليه كَرّازاً[2] أعمى» .

حتى إن لم يكن لِزاماً عليك إكمال العمل ، فلا تكُفّنَّ عن متابعته . فإن كان العمل عظيماً تكون المكافأة عظيمة ، ولوفّى سيّدك بدفعاته .

ثمّة تيجانٌ ثلاثة : تاج الشّريعة ، وتاج الكهانة ، وتاج الملكيّة . ولكن ما يفوقها جميعاً هو تاج السُّمعة الطيّبة .

مَن تُراه يحوز الحكمة ؟ مَن كان راغباً بتلقّي العلم أنّى كانت مَظانُّه . ومَن هو القويّ ؟ مَن يكظم انفعاله . ومَن هو الغني ؟ مَن رضي بنصيبه . ومَن هو المستحقّ للتّكريم ؟ مَن كان يكرّم النّاس على اختلاف درجاتهم .

لا تُحقّرنّ شأن أحد ولا تحكُمنَّ على شيء بالاستحالة ، فلكلّ امرئٍ يومُه ولكل شيء موضعُه .

---

(1) الأنكى من ذلك كثيرٌ من أهل الصّدارة في عصرنا : يسرقون كل شيء ثم يتنازعون ألقاب الشّرف ، وبينهم وبين الشّرف آلافٌ من الأميال .
(2) الكَرّاز كَبش كبير يُجعل في عنقه جرس مُجلجل ، يتبعه القطيع في سيره للمرعى .

الحديد يكسر الحجر ، والنّار تصهر الحديد ، والماء يُخمد النّار ، والغيوم تبتلع الماء ، والعاصفة تبدّد الغيوم ، والإنسان يصمُد للعاصفة ، والخوف يقهر قلب الإنسان ، والخمر يمنع الخوف ، والنّوم يغلب الخمر ، والموت سيّدٌ للنّوم . «أمّا البِرّ» – كما يقول شلومو – «فيُنجي من الموت»[1] .

كيف يتسنّى لك النّجاة من رِبقة المَعاصي ؟ ضع نُصب عينيك ثلاثة أشياء : من أين أتيتَ ، وإلى أين تمضي ، وأمام مَن ينبغي لك أن تمثُل . أمّا المُستهزئون ، والكذّابون ، والمُنافقون ، والمُفتَرون ، فلا نصيب لهم في نعيم الحياة الآخرة . وجُرم القذف وتشويه سُمعة النّاس لا يقلّ عن القتل .

تُبْ ولو قبل موتك بيوم[2] .

أُنزلت على هذه الدّنيا عشرة أجزاء من الحكمة ، فنالت شريعة بني يسرَئيل تسعة أجزاء ، ونالت بقيّة الدّنيا جُزءاً واحداً . وأُنزلت على الدّنيا عشرة أجزاء من البهاء ، فنالت يروشَلايم منها تسعة أجزاء[3] ، وبقيّة الدّنيا جُزءاً .

قال الرّابي شمعون : «تقوم هذه الدّنيا على عُمُدٍ ثلاثة : الشّريعة ، والعبادة ، والإحسان» .

وقال الرّابي آدا : «إن تعوّد رجلٌ على حضور الجماعة في الكنيس بانتظام ، وتخلّف عن الحضور لسبب قاهر ، فإن الله يفتقده ويسأل عنه» .

وقال الرّابي شمعون بن يهُوشُوَع : «أيّ مَن بنى مكاناً للعبادة تواضع له أعداؤه» .

وقال الرّابي لَكيش : «مَن كان قادراً على حضور الصّلاة في الكنيس ولم يفعل ، فأيُّ جار سَوء هو» .

---

(1) سفر الأمثال – 10 : 2 .

(2) حاشية على النّص : سُئل الرّابي الذي قال : «تُب ولو قبل موتك بيوم» من قِبَل تلاميذه عن كيف يمكنهم تنفيذ نصيحته ، طالما أن الإنسان يجهل متى يكون يوم موته . فقال : «عُدّ كلّ يوم يأتيك آخر أيّامك ، وتزوّد على الدّوام بالتّوبة وفعل الخير» .

(3) ما برح قُدسنا الشريف مدينةً مقدّسة لدى الجميع ، ولكن ليتَ شعري متى نراها ؟

قال الرّابي يُوسيه : «ينبغي للمرء ألا يرتقي للصّلاة عالياً ، لأنه مكتوب : «من الأعماق صرختُ إليك يا ربّ» » (المزامير 130 : 1) . والرّابي ذاته يحظر الحركة أو الكلام في أثناء تأدية الصّلاة ، وذلك عملاً بتوجيه شلومو : «احفظ قَدَمَك حين تذهبُ إلى بيت الله ، فالاستماع أقرب من تقديم ذبيحة الجُهّال» (سفر الجامعة – 5 : 1) .

وقال الرّابي حِيّا بن أبّا : «الصّلاة بصوت عالٍ ليس أمراً من ضرورات العبادة ، فالأهمّ عندما نُصلّي أن نتوجّه بقلوبنا إلى السّماء» .

عندما تحقّق لأجدادنا البُرء في الصّحراء عند تظرهم إلى الحيّة النّحاسية[1] ، لم يكن الأمر أن الحيّة هي التي كانت تُميت أو تُحيي ، بل كانت التّوجّه الصّادق إلى الآب في السّموات .

قال الحاخامات : «احمد الله في السَّرّاء كما تحمده في الضَّرّاء» ، وكانوا يأتون على ذلك بمثال داود : «كابدتُ ضيقاً وحُزناً ، وباسم الرّبّ دعوتُ» (المزامير 116 : 3–4) .

وقال الرّابي آشي : «فضيلة التّصدُّق تفوق كلّ ما عداها» .

قال الرّابي إليعزَر : «المُتصدّق في السِّرّ أعظم من مُوشيْه» . يستجيز مقولته هذه من كلام مُوشيْه (التّثنية 9 : 19) : «لأني فزعتُ من الغضب» ، ومن كلام شلومو : (أمثال 21 : 14) بمثابة الجواب : «الهديّة في الخفاء تفْثأ الغضب» .

وقال الرّابي يهُوشُوَع : «ذو الشُّحّ خبيثٌ كعابد وَثَن» .

وقال الرّابي إليعزَر : «الصَّدَقة خيرٌ من التّضحية» .

وقال الرّابي يُوحَنان : «مَن يُعطي (صَدَقة) يمسي غنيّاً» ، أو كما هو مكتوب : «والصِّدّيقون يُجْزَون خيراً»[2] .

---

(1) انظر سفر العدد – 21 : 9 : «فصنع مُوشيْه حيّة من نُحاس ووضعها على الرّاية ، فكان متى لدَغت حيّة إنساناً ونظر إلى حيّة النُّحاس يحيا» .

(2) سفر الأمثال – 13 : 21 .

في أحد الأيام سأل بعض المَناطقة (الفلاسفة) الرّابي عَقيبا : «إذا كان إلهُـك يحبّ المساكين ، فعَلامَ لا يكفيهم ؟» .

أجاب عَقيبا : «إن الله يُبقي بيننا أهل الحاجـة والفقـر ، لئلاّ تضيـع الفرصـة للإحسان وعمل الخير» .

فردّ المنطقي : «ولكن كيف عرفتَ أن فضيلة التصدُّق هذه تُرضي الله ؟ فلو أن سيّداً عاقب عبيده بحرمانهم مـن الطعـام والكسـاء ، أكـان يرضيـه أن يطعمهـم غيره ويكسوهم ؟» .

قال الرّابي : «ولكن افترض بالمقابل أن أبناءً لأب حنون ، لم يعُد في وسـعه إعالتهم فـأضحوا مسـاكين ، أيزعجه أن تحنّ لهـم بعـض النّفـوس الرّحيمـة فتمـدّ إليهم يد العون ؟ نحن لسنا عبيـداً لسيّد قـاسٍ ، بـل الله يدعونـا أبنـاءه ، كمـا أننـا ندعوه – سُبحانه – أبانا» .

قال رَبّاه : «عندما يقف المرء أمـام عرش الحسـاب الـذي يُقيمـه الله ، يُسـأل هذه الأسئلة :

أصادقاً كنتَ في مُعاملاتك كلّها ؟
أخصّصتَ طَرَفاً من وقتك لدراسة الشّريعة ؟
أحافظتَ على الوصيّة الأولى (لا يكُن لك آلهةٌ أخرى أمامي) ؟
أكنتَ في ساعات المِحَن مُحافظاً على صلتك بالله وإيمانك به ؟
أكنتَ تتفوّه بلسان الحكمة ؟» .

* * *

«بركات البيت بأسرها مصدرها الزّوجة ، لذا فعلى زوجها تكريمها» .

قال الرّاب : «ينبغي للأزواج أن يحرصوا على عدم جعل نسـائهم يبكين ، لأن الله يُحصي دموعهنّ» .

«في أحوال الصّدقة التي بها رجال ونساء ، تجب إعانة النّساء أولاً . فإن لم يكن ثمّة كفاية للطرفين ، وجب على الرّجال أن يتنازلوا لهنّ» .

«موت المرأة لا يشعر بوطأته أحد كما يشعر به زوجها» .

«تُذرَف الدّموع على مذبح الله على فِعل مَن ينبذ حُبّه الأول» .

«مَن أحبّ زوجته كنفسه ، وكرّمها أكثر من نفسه ، فهو يهذّب أبناءه على نحو حَسَن ، كما يكون موافياً للآية : «فتعلم أن خيمتك آمنة ، وتتعهّد مَربِضك ولا تفقد شيئاً» » (أيوب 5 : 24) .

قال الرّابي يُوسيه : «أنا لا أنادي زوجتي «يا امرأتي» ، بل «يا بيتي» ، لأنها بالفعل أساس بيتي» .

«مَن كان لديه معرفة بالله ومعرفة بالإنسان ، مُحالٌ أن يزلّ ويُذنب» .
«أُنزلت علينا التّوراه لإحلال السّلام في الأرض» .
«مَن ظلم النّاس ولو بأدنى من فِلس ، فهو خبيثٌ كقاتل النّفس» .
«مَن رفع يده في وجه مُحبّ له فهو مُقترفٌ للكبائر» .
«لا تُصادق مَن يشتمل بثوب وَليّ ليُخفي عيوب جهالاته» .

وقال الرّابي شمعون :

«مَن ترك لنفسه حريّة أهوائها كان مَثَله كعابد وَثَن» .
«فضيلة كرم الضّيافة لا تقلّ عن دراسة الشّريعة» .

وينصح الرّابي يهُوداه : «لا تترك نفسك أبداً أمام مزالق الغواية ، فحتى داوِد ذاته لم يقدر على مقاومتها» .

أمّا الرّابي تيرا فلمّا سأله تلاميذه أن يعلّمهم السّرّ الذي كفل له عمراً مديداً وسعيداً ، أجاب : «لم أكُ أُمعن في الغضب مع بيت أهلي ، ولم أحسد أبداً مَن كان أعلى مني ، ولم أبتهج أبداً لسقوط أحد ما» .

«بِئسَ مَن يُنكر على الشّجرة أغصانها ، وعلى الشّيء ظلّه» .
«أمْسُكَ ماضيك ، ويَومُك مستقبلك ، وغدُك سرٌّ في علم الغيب» .
«كفى بالقلب واعظاً ، وكفى بالزّمان مُعلّماً ، وكفى بالدّنيا كتاباً ، وكفى بالله خِلاً» .

«ما الدُّنيا إلا دَينٌ في رقبة الإنسان ، والموت دائنٌ مُطالبٌ بها يوماً» .
«اسعَ إلى فهم المَرء من خلال فعاله ومقاله ، فآراء النّاس مُضلّة» .

وقال الرّابي يعقوب :

«مَن تسبّب في عُقوبة شخص آخر ظُلماً وبُهتاناً يمكث بظاهر باب الجنّة» .

وقال الرّابي يصحاق :

«خطايا صاحب المزاج الحادّ أكثر من مزاياه» .

وقال الرّابي لَكيش :

«الرّجلُ الخَطّاء جاهلٌ بقدر ما هو خبيث» .

وقال الرّابي صموئيل :

«أفعالُنا في هذه الدّنيا تتجسّد لنا وتشهد علينا في الآخرة» .

«تحمُّل الاتّهام الباطل في السِّرّ خيرٌ من الإفصاح بفعل امرئٍ مُذنب على رؤوس الأشهاد» .

«مَن كان له حَياء لا يُبادر إلى ظُلم» .

«ثَمّةَ فارقٌ عظيمٌ بين مَن يحسّ بالعار والخجل أمام نفسه ، ومَن لا يحسّ بهما إلا أمام النّاس» .

وقال الرّابي عَقيبا :

يتضمّن عهدُ الله إلينا أمرَ العمل ، لأن الوصية القائلة : «ستّة أيام تعمل ، وأما اليوم السّابع ففيه تستريح»[1] ، تضع «الرّاحة» شرطاً على «العمل» .

وقال الرّابي شمعون في الموضوع ذاته :

«أوصى الله آدام أولاً بجنّة عدن ليعملها ويحفظها (تكوين 2 : 15) ، ثم عقب ذلك سمح له بالأكل من نتاج عمله» .

---

(1) سفر الخروج – 23 : 12 .

قال الرّابي طَرفون טרפון :

«لم يُقم الله بين بني يسرَئيل حتى عملوا على استحقاق حضوره ، إذ أمر : «فيصنعون لي مَقْدِساً لأسكن في وسطهم» » (خروج 25 : 8) .

عندما كانت يروشَلايْم في أيدي الرّومان الوثنيين ، تقدّم أحد مَناطقتهم (أي الفلاسفة) فسأل الحاخامات :

«إذا كان إلهُكم يمقُت عبادة الأوثان ، فما باله لا يحطّم الأوثان ويستأصل شأفتَها من الأساس ؟» .

فأجابه الحُكماء : «أتودّ أيضاً لو تُنسف الشّمس والقمر من أجل بعض الجُهّال الذين يعبدونهما ؟ إن تغيير مجرى الطبيعة لمعاقبة الخُطاة من شأنه أن يعود بالمعاناة على البريئين أيضاً» .

في سفر قُهِلت (الجامعة) 9 : 14-15 نجد هاتين الآيتين :

«مدينةٌ صغيرةٌ فيها أُناسٌ قليلون ، فجاء عليها ملكٌ عظيم ، وحاصرها وبنى عليها أبراجاً عظيمة . ووُجد فيها رجلٌ مسكينٌ حكيم ، فنجّى هو المدينة بحكمته» .

يفسّر الحكماء هاتين الآيتين بشكل جدّ جميل : فـ «المدينة الصّغيرة» ما هي إلا الإنسان ، و «الأُناسٌ القليلون» مختلف صفات النّفس . أما «الملك» الذي حاصرها فهو نوازع الشّرّ ، و «الأبراج العظيمة» التي بناها عليها هي «الآثام» . وأما «الرجلٌ المسكينٌ الحكيم» فما هو إلا «أعمال الخير» التي يمكن لأدنى مسكين أن يأتيها .

قال الرّابي يهُوداه :

«مَن يُحجم عن تعليم إحدى الوصايا لتلميذه فهو مُدانٌ بجُرم السّرقة ، تماماً كمن يسرق من ميراث أبيه ، كما هو مكتوب : «بنامُوس أوصانا مُوشيْه ميراثاً لجماعة يعقوب» (سفر التثنية 33 : 4) . ولكن إن هو علّمه ، فماذا يكون له من الثّواب ؟» .

قال رابا : «ينالُ بركة يُوسيف» .

قال الرّابي إليعيزَر :

«البيت الذي لا تُدرس فيه الشّريعة بالليل مآلُه إلى الخراب» .
«الغني الذي لا يُعين طالباً راغباً في دراسة شريعة الله لا يُصيبُ ثروة» .
«مَن دلّس كلامه ، فقال غير ما يفعل ، مَثَله مثل عابد الأوثان» .

قال الرّابي حاما بن پاپا :

«مَن أكل وشرب دون أن يُبارك اسم الرّبّ ، هو كمن يسرق ، هذا لأن «السّموات سمواتٌ للرّب ، أمّا الأرض فأعطاها لبني آدام»[1]» .

قال الرّابي شمعون بن لَكيش :

مَن يُطبّق وصيّةً إلهيّة في هذه الدّنيا يجدها مسجّلة في أعماله بالآخرة ، كما هو مكتوب : «ويسيرُ بِرُّك أمامك ، ومجدُ الرّبّ يجمعُ ساقَتَكَ»[2] . والأمر ذاته يكون بالعكس لمن يُذنب . لأن في الكتاب المقدّس : «فاحفظ الوصايا والفرائض والأحكام التي أنا أوصيكَ اليوم لتعملها»[3] ، فعليك أن تعملها - أي الوصايا - اليوم ، برغم أن الثّواب عليها ليس موعوداً اليوم وإنما في المستقبل ، فإن عملتَ الوصايا فهي تشهد لك ، إذ أن «بِرُّك يسيرُ أمامَك» » .

ويُطلق الحاخامات لقب أبرار الله على مَن يُؤذَون فلا يفكّرون في الانتقام ، ومَن يسلكون في محبّة الله ، ومَن يحافظون على طلاقة وجوههم في أوقات الشّدائد والصّعاب . وعن مثل هؤلاء كتب يشَعْياه في سِفره : كـ «الشّمس نوراً في النّهار»[4] השמש לאור יומם .

* * *

(1) سفر المزامير - 115 : 16 .
(2) سفر يشَعْياه - 58 : 8 .
(3) سفر تثنية الاشتراع - 7 : 11 .
(4) سفر يشَعْياه - 60 : 19 .

أحبّ زوجتك كنفسك ، وكرّمها أكثر من نفسك . فمَن عاش بلا زواج تكون حياتُه بلا بهجة . وإذا كانت زوجتُك صغيرة القَدّ ، فانثنِ إليها واهمس في أذنها . ومَن يشهد موت زوجته فكأنما يشهد في الواقع خراب الهيكل ذاته . وإن أولاد الرّجل الذي يتزوّج حُبّاً في المال يُضحون لعنةً عليه .

مَن كان علمُه يفوق عَمَلَه فهو أشبه بشجرة كثيفة الأغصان واهية الجُذور ، فأول عاصفة قوية تأتيها تُطيح بها أرضاً . أما مَن كانت أعماله تفوق معرفته فهو كشجرة يسيرة الأغصان ولكن قويّة الجُذور ضاربة في الأرض ، شجرة لا تقدر على اقتلاعها رياح السّماء كلّها .

رُبَّ لعنة تندّ عن صالح خيرٌ من مُباركة تصدر عن خبيث . فكانت مثلاً لعنة أخيّا الشّيلوني خيراً من مُباركة بِلعام بن بِعُور[1] . فهكذا لَعَن أخيّا اليسرَئيليّين : «ويضرب الرّبّ يسرَئيل كاهتزاز القَصَب في الماء» (سفر الملوك الأول 14 : 15) . فالقصب ينثني ولا ينكسر ، إذ أنه ينمو في الماء وجذوره صلبة . أما بِلعام فكانت مُباركته ليسرَئيل هكذا : «كأرْزات على مياه»[2] כארזים עלי־מים ، لكن بما أن شجر الأرز لا ينمو على المياه فجذوره هكذا تكون واهية ، وإذا هبّت عليه ريحٌ قويّة تكسّر بِدَداً .

* * *
* *
*

(1) راجع ما تقدّم من ذكره أعلاه في الفصل السّادس من القسم الأول ، وكان من حُكماء فرعوه إبّان ولادة مُوشيه (موسى ﷺ) ، فتنبّأ ضدّه وألّب فرعوه عليه ، وكان مصيره في النهاية القتل : «أما بِلعام بن بِعور فقتلوه بالسّيف» (سفر العدد – 31 : 8) .
(2) سفر العدد – 24 : 6 .

الجزيرة المهجورة

يُحكى أن رجلاً غنياً ، كان طيّب النّفس مجبولاً على الإحسان ، رغب بإسعاد عبده ، فوهبه حرّيته وأعطاه فوقها حِمل سفينة من البضائع . وقال الرّجل للعبد : «اذهبْ فأبحرْ في البلاد ، وبعْ هذه البضائع ، فكلّ ما تحصّله منها خُذْه لنفسك حلالاً طيباً مُباركاً لك فيه» .

فمضى العبد مُبحراً في عُرض المحيط ، ولكنه لم يكد يتوغّل في سفره حتّى هبّت عليه أنواءٌ عظيمة ، فجنحت به السّفينة إلى الصّخر وتحطمت أشلاءً ، فضاع كل ما عليها من مَتاع ، ما خلا العبد نفسه ، فسبح إلى شاطئ جزيرة كانت على مقربة . فراح الرّجل ، تحت وطأة الحُزن والقُنوط وفراغ اليد من حُطام الدّنيا ، يجول في الجزيرة ، إلى أن أشرف على مدينة رائعة فسيحة ، فخفّ إليه حشدٌ من النّاس مُبتهجين وراحوا به يهتفون : «على الرّحب والسّعة ! حَلَلتَ أهلاً ونزلتَ سهلاً ! عاش الملك !» . وجاؤوا بعربة فخمة ، فوضعوه بها ورافقوه إلى قصر فخم ، حيث حَفّ به الكثير من العبيد ، وألبسوه حُللاً ملكيّة ، وراحوا يخاطبونه بشعار المُلك ، ويُعربون عن انصياعهم التّام لرغباته كلّها .

عقدت الدّهشة لسان العبد وأخذه العجب كلّ مأخذ ، وخُيّل له أن كلّ ما رآه وسمع به وشهده كان مَحض حُلم عابر . فلمّا أيقن بحقيقة الأمر وبواقعيّة ما يجري أمامه ، قال لبعض الرّجال حوله ممّن آنس فيهم مودّةً وقُرباً :

«ما الأمر بالضّبط ؟ لستُ بفاهم شيئاً . ما لكُم تُسوّدون وتشرّفون رجلاً لا تعرفونه ، جوّالاً عاري البدن لم تروه في حياتكم قطّ ، فتجعلونه عليكم حاكماً وملكاً ؟ إن هذا لممّا يُدهشني إلى درجة العجز عن التّعبير» .

فأجابوا : «إن هذه الجزيرة ياسيّدي يقطنُها الجان ، وطالما كانوا يتضرّعون إلى الله أن يُرسل إليهم في كل سنة واحداً من أبناء البشر ليتولّى عليهم . فكان أن استجاب الله لدعائهم ، وجعل يُرسل إليهم في كلّ عام أُنسياً ، فكانوا يتلقّونه بالاحترام والتّشريف وينصّبونه على عرش مدينتهم ، غير أن شرط هذا التكريم والسّلطة أنه يزول مع انقضاء الحَوْل . إذ عند اختتام سنة تؤخذ منه حُلله الملكيّة ،

ويُطرح على متن سفينة فيُحمل إلى جزيرة واسعة ومهجورة ، حيث يتعيّن عليه ، إن هو لم يهيّئ لنفسه أموره بحكمة ، أن يعيش بمفرده حياةً بائسة تعيسة ، بلا رفيق أو أنيس . ثم يُنَصّبُ ملكٌ جديد ، وهكذا تكرّ السّنون دواليك . هذا وإن الملوك الذين سبقوك كانوا غير آبهين أو مكترثين للأمر ، فكانوا ينغمسون في ملاذّ سُلطتهم ويتقلّبون في نَعمائها ما حلا لهم أن يفعلوا ، ولا يتفكّرون في اليوم الذي تزول فيه من أيديهم . لذا فكُن أنت حكيماً ، وانظر ما تفعل» .

فكان أن استمع الملك الجديد بانتباه إلى مقالهم أجمع ، وندم حتى على الوقت الذي ضيّعه قبل ذلك دون أن يهيّئ لنفسه مرفقاً ، من قبل أن يزول عنه سُلطانه .

فخاطب الحُكماء الذين تكلّموا ، قائلاً : «أشيروا علي يا ذوي الحكمة ، كيف لي أن أهيّئ من أمري لأيامي القادمة في مُستقبلي ؟» .

فأجاب أحدهم : «كما جئتَنا عارياً ، فعارياً تُغادرنا إلى الجزيرة المهجورة التي أنبأتُك عنها ، أمّا الآن فأنت الملك وبمقدورك أن تفعل ما يحلو لك ، لذا فأرسل عُمّالاً إلى هذه الجزيرة ، ومُرهُم ببناء الدُّور وفلاحة الأرض وبتجميل المكان . فتتحوّل التّربة الجرداء إلى حقول خصيبة ، ويرتحل النّاس إليها للعيش ، فتجد لنفسك مملكةً جديدة ورعيّة يتلقّونك بالابتهاج والتّكريم عندما يزول من هنا سُلطانك . إنّ السنّة قصيرة ، والعمل كثير ، لذا فشُدّ العزم وكُن نشيطاً» .

فاتّبع الملك مشورته ، وأرسل الفَعَلة والمواد اللازمة إلى الجزيرة النائية ، التي ما لبثت قبل انقضاء مُدّة سُلطانه المؤقّت أن أضحت مكاناً زاهراً وماتعاً بكل ما تشتهي النّفس . كان الملوك الذين سبقوه يتوجّسون ويتحسّبون ليوم انقضاء سُلطانهم بالجَزَع ، أو يتجنّبون التّفكير به ، فأما هو فكان يتطلّع إلى ذلك اليوم كيوم فرح وابتهاج ، يدخل فيه حياةً مديدة من الرَّغَد والأمان .

فلمّا جاء اليوم الموعود ، جُرِّد العبد العَتيق الذي أضحى ملكاً من سُلطانه ، وزال عنه مع سُلطانه هذا لباسُه الملكي ، وطُرح عارياً على متن سفينة ، ووُجهّت أشرعتها صوب الجزيرة المهجورة .

غير أن الرّجل عندما أشرف على ساحلها ، إذا بالنّاس الذين أرسلهم إليها يأتون لاستقباله بالعَزف والتّهاليل والفرحة العارمة . ونصّبوه عليهم أميراً ، فعاش بينهم مُقيماً بالرّضا والحُبور ما شاء له أن يُقيم .

فالرّجل الغني المُحسن ما هو إلا الله ، والعبد الذي أعتقه ما هو إلا الرّوح التي يعطيها الله للإنسان . أما الجزيرة التي أتاها العبد فهي الحياة الدّنيا ، يأتيها الإنسان عارياً وباكياً أمام أهله ، يُكنّى عنهم بسكّان الجزيرة الذين يستقبلونه بكلّ حفاوة ويجعلونه ملكاً بينهم . أما الأصحاب الذين يخبرونه عن أمور البلدة فما هم إلا «نوازع فطرته الطيّبة» . وسَنَة سُلطانه هي دور حياته ، وأما الجزيرة النّائية فهي العالم الآخر ، الذي ينبغي له أن يجمّله بأعمال الخير ، أي بـ «الفَعَلة والموادّ اللازمة» ، وإلاّ عاش وحيداً طريداً إلى أبد الدّهر .

* * *

الإمبراطور والعجوز

يُحكى أن الإمبراطور هادريانوس عندما كان مجتازاً ببعض شوارع طبريّة أبصر رجلاً عجوزاً طاعناً في السّنّ يغرس شجرة تين ، فتوقّف وقال للرّجل : «لمَ تغرس هذه الشّجرة ؟ لو عملتَ شاباً لأضحت لك في شيخوختك ذخيرةٌ تتعيّش منها ، أما الآن فلا ريب أنك غيرُ مُدركٍ ثمار هذه الشّجرة» .

فأجاب العجوز : «في شبابي عملتُ ، وما زلتُ إلى الآن أعمل . وبإذن الله آكلُ من ثمر هذه الشّجرة التي أغرسُها . فبيده هو مصيري» .

قال الإمبراطور : «قُل لي كم عُمرك» .

«غبرتُ في هذه الدّنيا مئة عام» .

«لك من العمر مئة عام ، ولا تزال تأمل الأكل من هذه الشّجرة ؟» .

أجاب العجوز : «إذا كانت هذه إرادة الله ، وإلا تركتُها لابني ، كما ترك لي أبي ثمار عمله من قبل» .

قال الإمبراطور : «طيّب ، إن أنتَ عشتَ بالفعل حتى تحمل هذه الشّجرة وتُثمر ، فأرجو منك أن تُعلمني بهذا» .

ويُحكى أن العجوز امتدّ به العمر حتى حملت الشّجرة وأثمرت ، فتذكّر كلام الإمبراطور وقرّر زيارته ، فأخذ بيده سلّة[1] صغيرة ، وملأها بأطيب ثمار تلك التّينة ، ومضى لطيّته . فلمّا وصل وأطلع حرّاس القصر[2] على مسألته ، سُمح له بالمثول بين يدي الملك .

قال الإمبراطور : «أُدْنُ أيّها الشيخ ، ما هو مطلبُك ؟» .

فأجاب العجوز : «ما أنا يا مولاي إلاّ العجوز الذي قُلتَ له يوماً : «إن عشتَ حتى تحمل هذه الشّجرة وتُثمر ، فأعلمني بهذا» . فها أنا ذا أتيتُ وجلبتُ لك بعضاً من ثمارها ، لتأكل منها أيضاً» .

فسُرّ الإمبراطور غاية السّرور ، فأمر بإفراغ سلّة الرّجل من تينها ، وأمر بملئها له حتى أعلاها بالقطع الذّهبيّة .

فلمّا مضى العجوز ، قال بعض أفراد البطانة للإمبراطور : «لماذا أكرمتَ هذا اليهودي العجوز إلى حدّ بالغ ؟» .

أجاب الإمبراطور : «إن كان الله أكرمه ، أفلا أُكرمه أنا ؟» .

ويُحكى أنه كانت بجوار هذا العجوز تعيش امرأة ، فلمّا نمي إليها خبر سَعد جارها رغبت إلى زوجها بأن يجرّب حظّه في السّياق ذاته . فملأت له سلّة عظيمة بالتّين ، وطلبت إليه حملها على كتفه وقالت : «هيّا ، احملها إلى الإمبراطور ، فهو يحبّ التّين وسيملأ لك سلّتك بالقطع الذّهبيّة» .

فلمّا بلغ الزّوج أبواب القصر ، أطلع الحرّاس على شأنه قائلاً : «قد جلبتُ للإمبراطور تيناً كما ترون ، فأرجوكم أفرغوا سلّتي واملأوها بالذّهب» .

---

(1) العبارة في العبرية : סל سَل ، تتقارض مع العربيّة ، وإن كان بصيغة المذكّر .

(2) هل ترك الإمبراطور هادريانوس روما ليُقيم هنا ؟ هذه حكاية أسطورية نعم ، لكن الطامّة أن كثيراً من التّراث الدّيني تتم صياغته وقولبته هكذا ليصير مُقدّساً !

فلمّا وصل الخبر إلى الإمبراطور ، أمر بالعجوز أن يقف أن يقف في رواق القصر ، وأن يقذفه كلّ مَن مَرّ بثمار تينه . فعاد إلى بيته طافحاً بالكدمات مكسور الخاطر ، ليلاقي زوجته الخائبة الرّجاء .

فقالت : «لا تهتمّ ، ولك ثمّة عزاءٌ يرضيك ، فلو كان ما تحمل ثمار جوز الهند عوضاً عن التّين ، لكنتَ نلتَ من اللّطم أضعافاً» .

* * *

بَيّنةٌ على ملكيّة

يُحكى أن أحد أبناء يروشَلايْم كان مُسافراً ، فأصابه المرض في نُزُل على الطريق . وإذ أحسّ الرّجل أن نهايته قد دَنَت ، دعا بصاحب النُّزُل وقال له : «إنني لا مَحالةَ مُلاق حتفي ، فإن أتى بعد موتي أيّ أحد ليطالب بتركتي ، فلا تسلّمه شيئاً حتى يُبدي لك ثلاث علامات حكمة تدلّ على أنه بها جدير ، هذا لأنني أوصيتُ ابني قبل خروجي مُسافراً ، بأنّه إن حلّ بي الموت فعليه أن يُبدي علائم للحكمة قبل أن يرث ممتلكاتي» .

ومات الرّجل ، فدُفن حسب الشّعائر اليهوديّة ، وتمّ إعلان موته على الملأ كيما يحضر ورثته . فلمّا درى ابنه بوفاته انطلق من يروشَلايْم إلى حيث مات ، وقرب أبواب المدينة لقي رجلاً معه حمل حَطَب للبيع ، فاشترى هذا الحمل وطلب تسليمه في النُّزُل الذي كان متوجّهاً إليه . فقام الرّجل الذي ابتاع منه بقصد النُّزُل على الفور ، وقال : «ها هو ذا الحطب» .

أجاب صاحب النُّزُل : «أيّ حَطَب ؟ ما طلبتُ حطباً» .

أجاب الحطّاب : «بل طلبه الرّجل الذي يأتي الآن خلفي ، سوف أدخل وأنتظره» .

على ذلك ، أمّن الابن لنفسه مَن يتلقّاه بالتّرحاب عندما يصل النُّزُل ، فكانت تلك أولى علائم حكمته .

قال له صاحب المكان : «مَن أنت ؟» .

فأجاب : «ابن الرّجل الذي توفّي في نُزُلك» .

فأعدّوا له عشاءً ، ووضعوا على المائدة خمس حمامات ودجاجة . وقعد معه إلى المائدة كلٌّ من صاحب المكان وزوجته وابنيه وابنتيه .

قال الرّجل للضّيف : «فلتقسِم الطعام» .

قال الشّاب : «أنتَ السيّد هنا ، وهذا حقٌّ لك وليس لي» .

فقال الرّجل : «أرغبُ إليك أن تفعل ، فأنت ضيفي ابن التّاجر ، هيّا . . أرجوك أن تقسم علينا الطعام» .

فلمّا رأى الشّاب منه إلحاحاً ، قدّم حمامة للابنين ، وأخرى للبنتين ، وقدّم الثالثة للرّجل وزوجته ، وأبقى لنفسه الحمامتين الباقيتين . فكانت هذه العلامة الثانية على حكمته .

فبدا صاحب النُّزُل مُمتعضاً بعض الشيء من هذه الطريقة في التّقسيم ، ولكنه لم يفتح فاهُ بكلمة .

ثم قام ابن التّاجر باقتسام الدّجاجة ، فأعطى للرّجل وزوجته الرأس ، وللابنين الفخذين ، وللبنتين الجناحين ، وأبقى لنفسه بَدَن الدّجاجة[1] . فكانت تلك العلامة الثالثة على حكمته .

---

(1) يرد أمثال هذه القصّة في مجاميع الأدب العربي المؤلّفة في عهود الإسلام الأولى ، مثل : «زهر الآداب» للحُصري القيرواني ، و«العَقد الفريد» لابن عبد ربّه الأندلسي ، و«المُستطرَف» للأبشيهي . فهذا دليل على أن مصدر المرويات كان من التّراث القائم في المشرق قبل أن تشيع الكتابة بالعربية ، كقصص التّلمود والمدراش (النّاقلة عن الهند وفارس) ، والقصص الديني السّرياني . ولا ريب أن للتّراثين الأدبي والدّيني تمازجاً أكيداً .
نقول : ليس هذا عيباً ، فلا يسوء بأية لغة الاقتباس والتأثّر ، إنما الخطير ظهور طبقة من الباحثين ، كالألمانيين أبرَهام گايگر وتيودور نولدكه والمجري إگناتس گولدتسيهر ، وبأيامنا جوزيف قزّي (أبو موسى الحريري) وكريستوف لوكَسنبرغ (اسم مُستعار) ، راحوا يرمون النّصّ القرآني ذاته بتهمة الانتحال والنّقل . فلاقى ذلك أصداءً ، مع فشل لدينا في الرّدّ ، لنُدرة مَن يجيد علوم الفيلولوجيا والنّقد النّصّي وفقه اللّغات السّاميّة !

فقال الرّجل : «أهكذا تكون القسمة في بلدكم ؟ رأيتُك وأنت تقسم بيننا الحَمَامات ، فلم أتكلّم . أما دجاجتي يا سيّدي العزيز ، فلا بُدّ لي أن أسألك عن تعبير أمرها» .

فأجاب الشّاب قائلاً :

«سبق أن قلتُ لك إن القسمة ليست من شأني ، لكنك عندما أصررتَ فعلتُ ما بوسعي ، ولعلّي أصبتُ في قسمتي هذه . فأنت وزوجتك وحمامةٌ فهذه ثلاثة ، وابناك وحمامةٌ فهذه ثلاثة ، وابنتاك وحمامةٌ فهذه ثلاثة ، وأنا وحمامتان فهذه أيضاً ثلاثة ، فلعمري أنها لَقسمةٌ حَقّ . أما بخصوص الدّجاجة ، فأعطيتُك وزوجتك الرأس ، لأنكما رأسان في البيت . وأعطيتُ كلاً من ابنيك فخذاً ، لأنهما عمودا البيت ، وبغيرهما لا يدوم اسم العائلة . أما ابنتاك فأعطيتُ كلّ واحدة منهما جناحاً ، لأنهما بطبيعة الحال سوف تتزوّجان ، فيصير لهما أجنحة ويطيران من عُشّ الأسرة . وأمّا بَدَن الدّجاجة فأخذتُه لنفسي لأنه يُشبه شكل السّفينة ، طالما أنني جئت إلى هنا بسفينة وآمل الرّجوع بسفينة . وإنّي لابنُ التّاجر الذي توفّي في بيتك ، فهاتِ أعطني ملكيّة أبي المتوفى» .

قال صاحب البيت : «دُونَك هي حلالاً لك ، فامضِ راشداً» . فاستلم الشّاب تركة أبيه ومضى سالماً غانماً .

* * *

ردُّ دَين

يُحكى أن رجلاً من أبناء أتينا[1] (مدينة قرب يروشَلايْم) زار يروشَلايْم ، وبعد أن غادرها راح يُزري بها وبأهلها . فاغتاظ اليروشَلْميّون أيّما غيظ إذ صاروا عُرضةً لسخريته ، فحثّوا أحد أبناء مدينتهم على السّفر إلى أتينا ، ليُغري الرّجل بالعودة إلى يروشَلايْم ، فيتسنّى لهم أن يُفحموه ويردّوا على إهاناته .

---

(1) كذا بالأصل ، ولعلّ المقصود «تِمنات» (باللاتينية Thamna) بين القُدس ونابلس .

فقام اليروشَلْمي قاصداً أتينا ، وسرعان ما التقى بالرّجل الذي يريد . فلمّا كانا في بعض الأيام يتمشّيان في الطرقات ، قال اليروشَلْمي : «مهلاً ، قد انقطع سَير حذائي ، فأرجوك خُذني إلى الإسكاف» .

فأصلح الإسكاف سَير حذائه ، وإذا بالرّجل يدفع له قطعة نقد تفوق ثمن الحذاء ذاته .

في اليوم التالي ، لمّا كان الرّجل يتمشّى مع صاحبه تعمّد قطع سَير الفردة الثانية من الحذاء ، فلمّا قصدا الإسكاف من جديد ابتدره بالمبلغ الوافي ذاته على إصلاحه .

قال الأتيني : «مَهْ ، لا بُدّ أن الأحذية غالية الثمن للغاية في يروشَلايْم[1] ، ما دمتَ تدفع هذا المبلغ الكبير لإصلاح مجرّد سَير !» .

أجاب الآخر : «نعم ، فهي تساوي تسع دوكات ، وحتى في أيام الرُّخص لا يقلّ ثمنها عن سبع أو ثمان» .

«ما دام الأمر كذلك فلا ريب أنها تجارة مُجزية لي بأن أورّد أحذية من مدينتي وأبيعها في مدينتك» .

«نعم وأيمُ الحقّ ، ولكن لعلّك تُنبئني بمجيئك أوّلاً كيما أرتّب لك أمر التعرّف إلى الزّبائن» .

وهكذا ، قام الرّجل الذي هزئ باليروشَلْميين بابتياع بضاعة كبيرة من الأحذية ويمّم وجهه شطر يروشَلايْم ، بعد أن أرسل إلى صاحبه يُنبئه بقدومه . فخرج هذا الأخير إلى استقباله ، فلقيه قبل وصوله إلى أبواب المدينة ، وابتدره قائلاً :

«يقتضي العُرف في يروشَلايْم أن أيّ غريب يدخلها بغرض الاتّجار ، عليه أن يحلق رأسه ويُسخّم وجهه . فهل أنت جاهز لمثل ذلك ؟» .

---

(1) أشرنا في المقدمة أننا ننهج عند الترجمة مبدأ إيراد جميع المفردات والمصطلحات والأسماء بمنطوقها الوارد في نصّها . أما اسم المدينة لدينا فهو : القُدس الشريف .

أجاب الآخر : «ولـمَ لا ؟ طالما أنني أتوخّى أرياحاً جزيلة ، فما الذي يمنعني أو يؤخّرني عن أمر بسيط كهذا ؟» .

وهكذا ، بادر الرّجل إلى حلق رأسه وتسخيم وجهه (بما جعل يروشَلايْم كلّها تُدرك بأنه هو مَن ازدرى المدينة وأهلها) ، ومكث في السّوق وبضاعته أمامه مُزجاة .

فراح الشّارون يمرّون به ويسألون : «بكم الأحذية ؟» .

فيجيبهم : «بعشر دُوكات ، أو ربما بعتُ بتسع ، ولكن ليس أبداً أقلّ من ثمان» .

فكان ذلك يُثير موجات من الضّحك والقهقهة والصّخب في السّوق ، ثم طردوا الرّجل منه تحت صيحات السّخرية ، ورموا بأحذيته في أعقابه .

فطلب الرّجل اليروشَلمي الذي غرّر به ، وقال له : «ما حَمَلك على أن تفعل بي ذلك ؟ أرأيتَني أهنتُك في أتينا ؟» .

أجاب اليروشَلمي : «فليكُن هذا لك درساً ، ولا أظنّك تُعاود الهُزء بنا بعد الآن أبداً» .

* * *

ابن عرس والبئر

يُحكى أن شاباً صادف أثناء ارتحاله في البلاد فتاةً صبيّة ، فما لبثا أن وقعا في الهوى . فلمّا توجّب على الفتى مُبارحة المنطقة التي تُقيم فيها الفتاة ، التقى العاشقان ليقولا كلمة الوداع . فعندذاك تبادلا العهد بالوفاء ، ووعد أحدهما الآخر بأن يمكث بانتظار حبيبه إلى أن تسمح لهما الأقدار بالزّواج . وقال الفتى : «فمَن يشهد على خطوبتنا هذه ؟» . فإذا بهما يبصران ابن عِرس يمرّ أمامهما ويختفي في الأجمة . فأردف الفتى : «أترين ؟ ابن عِرس هذا مع البئر الذي نقف عنده يشهدان على خطوبتنا» . ثم تفارقا .

وكرّت السّنون ، فظلّت الفتاة وفيّةً على العهد ، أما الفتى فتزوّج . وبعد مدّة وُلد له ابن ، وراح يكبر تحت أنظار والديه المسرورين . وفي بعض الأيام كان الصبيّ يلعب فناله التّعب ، فاستلقى على الأرض ونام ، فعضّه ابن عِرس في رقبته فنزف حتى مات . وكابد قلبا الأبوين من جرّاء هذه الفاجعة غاية الحزن والمشقّة ، ولم يستكن بالهما حتى رُزقا بطفل آخر . ولكن لمّا صار بإمكان هذا الابن الثاني المشي بمُفرده راح يتجوّل خارج البيت ، وإذ انحنى أمام البئر ليتفرّج على صورته في الماء فقد توازنه وانقلب في البئر وغرق .

عندها ، تذكّر الأب عهده الذي حَنِث به ، وتذكّر شاهديه : ابن عِرس والبئر . فأخبر زوجته بالقصّة ، فوافقت على الطّلاق . ثم مضى طالباً الفتاة التي وعدها بالزّواج ، فوجدها ما زالت قائمة على عهدها تنتظر رجوعه . وروى لها كيف أنّه من خلال إرادة الله قد عُوقب على ما جناه من ذنب ، وبعد ذلك تزوّجا وعاشا بسعادة ووئام .

* * *

الوريث الشّرعي

يُحكى أن يسرَئيلياً حكيماً ، يقطن على مرحلة من يروشَلايْم ، أوفد ابنه إلى المدينة المقدّسة لمتابعة دراسته . فخلال غياب الابن حلّ المرض بالأب ، ولمّا أحسّ بدنوّ أجَله كتب وصيّته ، تاركاً كل ما يملك لواحد من عبيده ، بشرط أن يسمح لابنه أن يختار أيّ غرض فرديّ يُعجبه من الإرث .

فحالما توفي الأب قام العبد مُبتهجاً بحظّه الفائق ، وهَرَعَ إلى يروشَلايْم فأخبر ابن سيّده الرّاحل بما جرى ، وأطلعه على الوصيّة .

فصُعق الابن وتألّم للخبر ، وبعد مُضيّ المدّة المعيّنة للحداد راح يتفكّر مليّاً في أمره . فمضى إلى معلّمه ، وشرح له مُلابسات الأمر ، وقرأ عليه وصيّة أبيه ، وجعل يندب إليه حظّه بضياع ما كان يؤمّله من أمر إرثه ، متعجّباً من أنه لم يأت ذنباً يُغضب أباه ، وراح يتمادى في امتعاضه على هذا الجَور .

قال المعلّم : «حسبُك فاصمُت ، ما كان أبوك إلا امرءاً حكيماً ووالداً عطوفاً . وما هذه الوصيّة إلا شاهداً حيّاً على حُسن فهمه وبُعد رؤياه . فلعلّ ابنه يكون بمثل حكمته يوماً» .

تعجّب الفتى قائلاً : «ماذا ؟ لستُ أرى أيّة حكمة في وَهب ملكيّته أجمع لعبد من عبيده ، ولا أيّ محبّة في تجاهله هذا لابنه الوحيد» .

أجاب المعلّم : «اسمع ، من خلال هذا الفعل بالذّات عمد أبوك إلى أمر واحد فحسب ، ألا وهو تأمين تسليم إرثك إليك دون سواك ، إذا كنتَ بما يكفي من الحكمة لتستفيد من ذكائه . فلا بدّ أنّه قال لنفسه عندما أحسّ بيد الموت تقترب منه : «ابني الآن بعيد ، وعندما أموت سوف لن يكون حاضراً ليتولّى شأن ما أملك ، ولا ريب أن عبيدي سيُسارعون إلى انتهاب أملاكي ، وحتى أنهم قد يُخفوا عن ابني خبر موتي ليكسبوا مزيداً من الوقت ، ويحرمونني من طعم العزاء والسُّلوان بحضور ابني» .

«فليدرأ هذا كلّه ، أوصى بمُلكه إلى عبده ، موقناً بأن هذا الأخير إذ يظنّ بحقّه السّافر في الأمر سيخفّ إلى إبلاغك على وجه الأمر ويُحافظ على الممتلكات ، كما رأيتَه فَعَلَ بالضّبط» .

«طيّب . . طيّب ، وفيمَ تُراه ينفعني هذا كلّه الآن ؟» . بادر التّلميذ النّافذ الصّبر مُقاطعاً .

أجاب المعلّم : «آها . . أرى أن الحكمة لا تسكن عقول الشّباب ! أما علمتَ أن ما يملكه أيّ عبد إنما هو مُلكٌ خالصٌ لسيّده ؟ أولم يترك لك أبوك حريّة اختيار الشيء الذي ترضاه من تركته كلّها حلالاً طيّباً لك ؟ فما عليك إلا اختيار العبد بمثابة حصّتك المُرتضاة ، فيكون امتلاكك له ضماناً لاسترجاع كل ما كان لأبيك . فهذا هو مقصده الحكيم والرّؤوف» .

ففعل الفتى بنصيحة المعلّم ، وأطلق بعدها للعبد حريّته . ولكنه منذ ذلك اليوم طفق يردّد : «الحكمة حُكرٌ على الشّيوخ ، والفهم لا يأتي إلا بطول الأيام ومُكابدة الحياة» .

لا شيء في الدّنيا بغير نفع

يُحكى أن داود ملك يسرَئيل كان في بعض الأيام مُضطجعاً على أريكته ، يتفكّر ويتأمّل في العديد من شؤون هذه الحياة . فقال في نفسه : «ما هو نفع العنكبوت في هذه الحياة ؟ لا أرى لها شأناً سوى تكويم الغُبار والأقذار في الدّنيا ، فتشوّه كلّ مكان ويتأتّى عنها كلّ إزعاج» .

ثم قعد يتفكّر بالمجنون ، فقال في نفسه : «كم هو تعس منكود الحظ ! أفهم أن جميع الأشياء تُرتّب بأمر الله بنظام وتوفيق تامّين ، أما هذا فيخرج عن نطاق مداركي ، إذ كيف يولد بعض النّاس حَمقى أو يُصابون بالجنون ؟» .

ثمّ أخذ البعوض يزعجه ، فراح الملك يتساءل : «وما هو نفع هذا البعوض أيضاً ؟ ما هو مُوجب خلقه في هذه الدّنيا ؟ إنه لا يؤدّي إلاّ إلى إقلاق راحتنا ، وليس للدّنيا من وجوده أيّ فائدة» .

غير أن الملك داود عاش بعدُ ليُدرك أن هذه الحشرات بالذّات ، وأن الحكمة من ترتيب الحياة ، وأن الكائنات ذاتها التي راح يستنكر وجودها ، إنما تمّ تسخيرها لمنفعته الشخصية بالذّات .

فلمّا هرب داود من وجه شاؤول ، ألقى إخوة جُليات القبض عليه في أرض الفِلسطينيين ، فأخذوه إلى ملك جَت גת ، فلم يتسنَّ له الإفلات من حَومة الموت إلا بادّعاء الجنون ، فأقرّ الملك بأن رجلاً كهذا لا يمكن أن يكون الملك داود ، كما هو مكتوب : «فغيّر عقله في أعينهم ، وتظاهر بالجنون بين أيديهم ، وأخذ يُخربش على مصاريع الباب ، ويسيل ريقُه على لحيته» (صموئيل الأول 21 : 13) .

وفي واقعة أخرى ، اختبأ داود في مغارة عِدُلاّم מערת עדלם [1] ، فكان أن عنكبوتاً أتت إثر دخوله تنسج على باب المغارة خيوطها . فمرّ مُلاحقوه المطالبون بدمه بذاك المكان ، فتجاوزوا عنه على اعتبار أنه لا يمكن لأحد أن يلج مغارةً قد نسجت عليها العنكبوت ، من غير أن يهتِك خيوطها .

---

(1) راجع حول هذه الواقعة سفر صموئيل الأول – 22 : 1 ، لكن رواية العنكبوت ليس فيه ، بل هي تُراث شفهي الأصل من أجَداه التّلمود والمدراش .

وكذلك كان البعوض في خدمة داود عندما دخل معسكر شاؤول ، لكي يحصل على أسلحة هذا الأخير . فلمّا كان يتسلّل أمام أبنير النّائم ، تحرّك هذا وإذا به يضع ساقه على جسد داود . فلو أنه تحرّك كان أوقظ أبنير ولاقى حتفه ، وإن بقي على وضعه ذاك لطلع عليه الصّباح وكان القتل نصيبه ، فلم يدرِ ما يفعل وإذا ببعوضة تحطّ على ساق أبنير ، فهزّها بسرعة ونجا داود .

ولذلك أنشد داود يقول : «جميع عظامي تقول : يا ربّ مَن مِثلُك»[1] .

* * *

عاقبة الإيمان

كان اليسرَئيليّون أُمروا بزيارة يروشَلايم في ثلاثة أعياد . فحدث في إحدى الأيّام أن الماء شحّ في المدينة ، فمضى واحد من النّاس يلتمس من بعض الأعيان الذي كان له ثلاثة آبار بأن يسمح لهم بالاستقاء من مائها ، واعداً بإعادة ملئها في موعد معيّن ، ومتعهّداً في حال عدم توفّر الماء بدفع مبلغ كبير من الفضّة برسم التّعويض . فلمّا حلّ الموعد المعيّن ، كانت الدّنيا مُمحلة ولم ينزل المطر ، وكانت الآبار الثلاثة خالية من الماء . ففي الصّباح أرسل صاحب الآبار يطلب المال الموعود . فأجاب نَقديمون بن جُوريون ، وهو الرّجل الذي تولّى هذا الواجب من أجل صالح النّاس : «النّهار ما زال في أوّله ، وثمّة وقت بعد» .

فدخل الهيكل وراح يتضرّع إلى الله بأن يُرسل المطر ، ويُبقي له ماله الذي غامر بفقده بأكمله . واستُجيب لدُعائه بالفعل ، فتجمّعت السُّحُب وهطل المطر مدراراً . وفيما كان خارجاً من الهيكل بقلب مُفعم بالرّضا ، إذا به يقابل دائنه الذي ابتدره قائلاً :

«صحيح ، لقد ملأ المطر آباري ، ولكن ها قد حلّ الظلام ومضى النّهار ، وحسب اتفاقنا يبقى لزاماً عليك أن تدفع لي المبلغ الموعود» .

---

(1) سفر المزامير - 35 : 10 .

فدعا نَقديمون مرّة أخرى ، وإذا بالسّحب تنجلي ، فبانت الشمس المائلة نحو المغيب وألقت بأشعّتها الذهبية على المكان الذي كان يقف فيه الرّجلان ، فدلّت على أن نور النّهار لمّا ينقضي بعد ، ولو أن السُّحُب الماطرة كانت لبعض الوقت أظلمت آلقَه .

* * *

أبتينوس وجَرْماه

كانت عائلة تُعرف بآل أبتينوس ، يجيد أفرادها صناعة البخور المُستخدم في الصّلاة . وكانوا يضنّون بتعليم أيّ إنسان معرفتهم ، فخشي قيّمو الهيكل أن تبيد هذه الصّنعة عند موت هؤلاء ، فصرفوهم من الخدمة ، وأتوا بناس آخرين من الإسكندريّة في مصر بُغية تحضير اللُّبان المعطّر . غير أن هؤلاء لم ينالوا رضا النّاس ممّا اضطرّ القوّامين إلى إعادة الخدمة لأيدي آل أبتينوس ، الذين من جهتهم رفضوا قبولها مجدّداً ، ما لم تُضاعف لهم مكافأة خدماتهم .

فلمّا سُئلوا عن سبب إصرارهم على رفض تعليم فنونهم للآخرين ، أجابوا بأنهم يخشون إن هم علّموا بعض النّاس غير المُستأهلين ، أن يبادر هؤلاء فيما بعد إلى استخدام معرفتهم في عبادة وثنيّة . وكان أفراد هذه العائلة حريصين غاية الحرص على عدم التطيّب بأيّ من نوع من الطّيوب ، لئلا يقر في ذهن النّاس بأنهم يستخدمون الأطياب العطرية المُستخدمة في صناعة البخور لأغراض دنيئة .

وثمّة مثال شبيه بذلك فيما يتعلّق بآل جَرْماه ، الذين كانوا يحتكرون معرفة صنع خُبز التّقدمة المُستخدم في صلوات الهيكل .

وحول هذين المثالين كان قول ابن عَزّاي : «باسمك ينادونك ، وفي مدينتك يُسكنونك ، ومن مالك يُعطونك» ، بمعنى أن الثّقات ينبغي لهم ألا يخشوا غَصب الآخرين حرفتهم . وعبارة «فباسمك ينادونك» ، كما جرى مع آل أبتينوس وجَرْماه ، «ومن مالك يعطونك» ، تعني أن ما يكسبه المرء يكون له حلالاً طيّباً ، لا يحقّ لأحد أن ينتزعه منه .

الوثوق بالله

يُحكى أن الرّابي يُوحَنان بن ليفي صام وصلّى للرّبّ لكي يُجيز له رؤية إلياهو[1] المَلَك ، الذي رُفع حيّاً إلى السّماء . فاستجاب الله لدُعائه ، فظهر له إلياهو على هيئة رجل .

توسّل الرّابي إلى إلياهو قائلاً : «دَعني أتّبعك في طوافك عبر البلاد ، وأراقب أحوالك وأفعالك ، فأكسب لنفسي حكمةً وفهماً» .

قال إلياهو : «لا ، فأفعالي لا سبيل لك إلى فَهمها ، وتصرّفاتي لا صبر لك عليها ، فكيف تصبر على ما ليس لك به علم ؟» .

لكن الرّابي أقام على توسّله : «لن ترى مني أيّ إزعاج أو تساؤل ، لكن اسمح لي أن أتّبعك في دربك» .

قال إلياهو : «إذاً هَلُمّ ، ولكن ليلزم لسانُك الصّمت ، وعند أوّل سؤال تسألنيه ، أو أول إشارة تعجّب منك ، فهو الفُراق ما بيننا» .

فجال الاثنان معاً عبر البلاد ، وبلغا بيت رجل فقير ، لم يكن يملك من المال وأسباب الرّزق سوى بقرة . فلمّا اقتربا خفّ الرّجل وامرأته إلى استقبالهما واستحلفاهما بالدّخول إلى كوخهما وتناول الطّعام والشّراب من الميسور لديهما ، وبأن يمضيا اللّيل تحت سقفهما . فهذا ما كان ، فلقيا كل حفاوة من مُضيفيهما الفقيرين الكريمين . وفي الصّباح قام إلياهو مُبكراً يصلّي ، فما إن فرغ من صلاته حتى وقعت بقرة الفقيرين ميتةً . ومضى الرّفيقان في رحلتهما .

---

(1) إلياهو أو إيليّا التّشبي من أنبياء إسرائيل ، عارض عبادة البعل التي اتّبعها الملك أخاب بن عُمري في السّامرة . ترد سيرته في سفر الملوك الأول - أصحاح 17-22 ؛ وسفر الملوك الثاني - أصحاح 1-2 ، وفيه أنه رُفع حيّاً ولم يَمُت . يتكرّر ظهوره العجائبي في التّلمود ليُنجد الحاخامات ويعلّمهم . يُعرف في تُراثنا الإسلامي باسم «نبي الله إلياس عليه السلام» ، يرد في القرآن الكريم : ﴿وإنّ إلياسَ لَمِنَ المُرسَلين * إذْ قالَ لقومه ألا تتّقُون * أتَدْعُون بَعْلاً وتَذَرون أحسنَ الخالقين﴾ (الصّافّات : 122-124) .

وفي بعض متون الحديث الشريف والتّراث الشفهي لقصص الأنبياء يرد باسم «الخضر - أبو العبّاس» ، ويقرن بعض النّاس بالخطأ بين الخضر والقدّيس جاورجيوس .

فأخذت الحيرة من الرّابي يُوحَنان كلّ مأخذ ، فقال لإلياهو : «لـم يكفنا أن نُنكر عليهما أداء حقّ ضيافتهما وخدماتهما الطيّبة بدفع أجرة ما ، بل وتُبادر إلى إهلاك بقرة هذا الرّجل الطيّب الذي . .» .

فقاطعه إلياهو : «صَه ، فلتسمع أذنك ولتُبصر عينُك ، ولكـن فلتصمتْ ! فإن أنا أجبتُك فهو فُراق بيني وبينك» .

وتابعا طريقهما معاً . وعند المساء وصلا دارةً واسعة فخمة ، يسكنها رجل غنيّ متعجرف . فلقي الرّجلان استقبالاً هزيلاً ، وقُدّمت لهما قطعة من الخبز وكأس ماء ، حتى أن صاحب البيت لم يكترث بمجرّد التّرحيب بهما أو الحديث معهما ، فباتا ليلتهما هناك مُهملَين . وفي الصّباح لاحظ إلياهو أن جداراً في البيت بحاجة إلى إصلاح ، فأرسل في طلب النجّار وبذل أجرة الإصلاح من ماله ، بأن هذا كما قال ردٌّ لكرم الضّيافة التي لقياها .

فتملّك العجب من جديد الرّابي يُوحَنان ، لكنه لم ينطق بحرف ، وتابعا طريقهما قُدُماً .

ولمّا قارب حلول الظّلام ، دخلا مدينة كان فيها كنيسٌ كبير وفخم . ولمّا كان موعد صلاة المساء قد حلّ فقد دخلا الكنيس وراحا يُمعنان النّظر فيما بالمكان من الزّخارف الغنيّة ، والطنافس المُخمليّة ، والنّقوش المُذهّبة . وبعد اختتام الصّلاة ، قام إلياهو وصاح عالياً : «أهُنا مَن يودّ إطعام فقيرين وإيوائهما في هذه الليلة ؟» . فلم يُجب أحد ، وأبَوا أن يضيّفوا المُسافرين الغريبين أو يكرموهما . ولكن في الصّباح ، عاود إلياهو دخول الكنيس ، وراح يصافح أفراده قائلاً : «أتمنّى لكم أن تصيروا جميعكم رؤساء» .

في المساء التالي دخل الرّجلان مدينة ثانية ، فلمّا سارع شمّاس الكنيس لاستقبالهما ، بعد إخبار أفراد الجماعة بقدوم غريبين ، فُتحت أحسن دار للضيافة في المدينة لهما ، وراح الجميع يتنافسون في تقديم الكرم والرّعاية لهما .

ففي الصّباح لدى توديعهما لهؤلاء ، قال لهم إلياهو : «فليُعيّن الرّبّ عليكم رئيساً واحداً فحسب» .

فهنا ، لم يعد يُوحَنان يُطيق صبراً ، فقال لإلياهو : «قُل لي ، أنبئني بتأويل هذه الأفعال التي شهدتُها . فأولئك الذين عاملونا بغير اكتراث رُحتَ تُغدق عليهم دعوات الخير ، وأما الذين أكرمونا وأحسنوا إلينا فلم توفّهم حقّهم بالمثل . فحتى إن كان لا بُدَّ من الفُراق ، أرجوك أن تُخبرني بتأويل ذلك كلّه» .

قال إلياهو : «اسمعْ ، وتعلّم الوثوق بالله ، حتى وإن لم تفهم طُرُقه ! فلمّا دخلنا أولاً بيت الرّجل الفقير الذي عاملنا بلُطف ، اعلمْ أنه في ذلك اليوم بالذّات كان مُقدّراً أن تموت زوجته . فدعوتُ الرّبّ بأن تكون البقرة فداءً لها ، واستجاب الله دعواتي ، وأُبقيت المرأة لزوجها . أمّا الرّجل الغني الذي زُرناه بعدها ، فقد عاملنا بغير اكتراث ومع ذلك أصلحتُ له جداره ، وأصلحتُه بغير أساس جديد ، وبغير حفر إلى عُمق الأساس القديم . فلو أنه أصلحه هو ، لكان قام بالحفر ولكان عثر على كنز مطمور تحته ، لكنّه الآن ضاع عليه إلى الأبد . أمّا أفراد الكنيس الذين أبَوا أن يُضيّفونا فقلتُ لهم : «فلتَصيروا جميعُكم رؤساء» ، والحقّ أنه برئيس واحد فقط يُؤمَن عدم نشوب الخلافات» .

«فافهم وعِ ما أقول : إن رأيتَ خبيثاً يخوض في النّعماء ، فلا تبتئسنَّ أو يستولي عليك نَزَغٌ من حَسَد ؛ وإن رأيتَ صالحاً قد أمضّه الفقر وتقلّبته الرّزايا ، فلا يتوجّسنَّ قلبُك أو تدُر بجَنانك في عدل الله الظّنون . فإن الرّبّ لَعَدْلٌ قويم ، وحُكمه حَقٌّ وصواب ، وعينُه ترى الخليقة بأجمعها ، وليس لأحد أن يقول له : «ما الذي فعلتَ ؟»» .

وعقب هذه الكلمات ، اختفى إلياهو ، وبقي يُوحنان بمُفرده[1] .

* * *

(1) هذه الرّواية من أجَداه التّلمود ، في حين أن أجَداه المدراش تختصّ بشرح وتذييل المرويات التاريخية والأدبية للتّوراه ، بقصص أنبيائها وملوكها ، ثم شخصياتها التاريخية اللاحقة (في أسفار النبيئيم والكتوبيم) . ويُوحَنان (أو يهُوشُوَع) بن ليڤي متأخّر عن شخصيات الأسفار اليهوديّة الثلاثة . وبذا يلاحظ القارئ مدى اتّساع مساحة التّلمود – من حيث حجمه وحقله الزّمني – على الأسفار الثلاثة (تَنَخ) ، وعلى ما يليها من شروحات في المدراش ، حتى غدا المصدر التشريعي الأول لليهوديّة الحاخاميّة الأرثوذوكسيّة .

العروس والعريس

يُحكى أن رجلاً أحبّ صبيّة صادقة وجميلة ، فبادلها الوفاء وعاهدها أن يُقيم على محبّته لها . ولحين من الزّمان مضى كل شيء على ما يُرام ، وعاشت الفتاة بخير ووئام . ثم حصل ما جعل الرّجل ينشغل عنها فتركها ، وجعلت تنتظره طويلاً ولكنه لم يعُد . وأخذ مُحبّوها يُشفقون لها بينما يهزأ بها العُذّال ، الذين جعلوا يُشيرون إليها قائلين : «ها قد نَبَذَكِ ، ولن يعود مُطلقاً» . فالتمست الفتاة حُجرتها ، وراحت تقرأ في السِّرّ الرّسائل التي كان حبيبها يكتبها لها ، وكان في تلك الرّسائل يعدها بالبقاء دوماً على العهد . فراحت تقرأها وتبكي ، لكنها وجدت فيها شيئاً من العزاء والسّلوى لقلبها ، فكفكفت دموعها وأوصدت في وجه الشّكّ قلبها .

وفي إطلالة يوم مُشرق مُفرح ، إذا بالرّجل الذي أحبّته يعود ، ولمّا درى بأن النّاس كانوا يُشكّكون سألها كيف حافظت على وفائها ، فأرته رسائله وأكّدت له ثقتها المُطلقة .

فأمّة يسرَئيل ، إبّان نكبتها وسبيها[1] ، كانت الأمم تسخر منها ، وصارت آمالها في الانعتاق مَثاراً للهُزء ، يُضحك من حُكمائها ويُزرى بأوليائها . لكن أمّة يسرَئيل بقيت مواظبة على زيارة كُنُسها وارتياد مدراسها . وكانت تقرأ الرّسائل التي كان الله وجّهها إليها ، وتؤمن بما فيها من الوعود المقدّسة .

ولا ريب أن الله سيخلّصها حين يشاء ، وهو عندما يقول لها : «كيف أمكنك البقاء وحيدة على إيمانك برغم هُزء الهازئين ؟» ، فهي تُشير إلى كتب الشّريعة وتُجيب :

«لو لم تكُن شريعتُك لذّتي ، لهَلَكتُ حينئذٍ في مَذَلّتي» (المزامير 119 : 92) .

* * *

(1) لا يذكر لنا حاخامات التّلمود ، لماذا يعاقب الله «شعبه المُختار» (أهل الكتاب עם הספר) مئات وآلاف السّنين ، إن كانوا لا يستحقّون العقاب ؟

الحقّ

يُحكى[1] أن الله عندما عزم على خلق الإنسان تجمّعت الملائكة حوله ، فقال بعضها متعجّباً : «فلتخلق يا الله مَن يُسبّح بحمدك على الأرض ، كما نسبّح نحن ونُرنّم لمجدك في السّماء» .

لكن غيرهم قالوا : «استمع لنا أيها الملك الجبّار ، ولا تخلق هذا الإنسان ! فالانتظام الرّائع للسّموات العُلى الذي أحللتَه على الأرض سوف يشوّشه الإنسان ويُفسد فيه» .

ثم ران الصّمت على الحَشد المتنازع ، عندما ظهر ملاك الرّحمة أمام عرش العِزّة وسجد . وكم كان صوته عَذباً رخيماً حينما قال : «أيها الآب ، فلتخلق الإنسان ، واجعله على صورتك الكريمة ! وسأملأ قلبه بالرّحمة الإلهيّة ، وروحه أطبعُها بالرّفق المخلوقات جميعها ، فمن خلاله يتمثّلون رمز تسبيحك» .

وسكت ملاك الرّحمة ، فتكلّم ملاك السّلام والدّموع تهمل من عينيه : «بل لا تخلقه يا الله ! فهو ينقض السّلام ، وسيعقب مجيئه إلى الأرض سفكٌ للدّماء لا مَحالة . وتعمّ الأرض الفوضى والرّعب والحرب ، فلا يبقى على الأرض من عمل يدك مكانٌ بهيج» .

ثم تكلّم ملاك العَدل بصوت حازم : «فعندها تُدينُه يا الله ، ويكون ماثلاً على الدّوام تحت حُكمي» .

فاقترب ملاك الحقّ قائلاً : «لا يا إله الحقّ ، لا تخلقنَّه ، فمع هذا الإنسان ينزل إلى الأرض الكذب والبُهتان !» .

ثم سكت الجميع ، ومن قلب الصّمت صدر الوحي الإلهي : «فإلى الأرض تنزل معه يا مَلاك الحقّ ، لكنك تبقى مُقيماً في أحواز السّماء ، متردّداً بين السّماء والأرض ، مُحكماً بينهما الوصال» .

* * *

(1) لا يرد هذا الحوار أبداً في التّوراة (التكوين ، أصحاح 2) ، بل تنفرد به أجَداه التّلمود .

خراب بيتار

يُحكى أنه كان من العادات المُتّبعة في بيتار[1] عندما يولد لأبوين طفل أن تُغرس باسمه شجرة أرز صغيرة ، لتنمو وتكبر مع الطفل . فحدث في بعض الأيام أن ابنة الإمبراطور كانت تركب عبر المدينة ، فانكسرت عربتها ، وقام مرافقوها باقتلاع أرزة صغيرة لإصلاحها . فما كان من الرّجل الذي غرس هذه الأرزة إلا أن هجم على العبيد وأوسعهم ضرباً .

فأثار هذا العمل سخط الإمبراطور بشدّة ، فوجّه إلى المدينة على الفور جيشاً قوامه ثمانون ألف رجل . فقام هؤلاء باجتياحها وقتلوا سكّانها ، رجالاً ونساءً وأطفالاً . وجرت الأنهار حمراء من فيض الدّماء ، ويُقال إن الأرض أضحت خصيبة مُثمرة للزّارعين مُدّة سبع سنين من أجساد الهالكين ، الذين يُقال إن عددهم كان يُناهز الأربع مائة ألف يسرَئيلي .

* * *

خراب يروشَلايْم

عندما عظُمت ذنوب اليسرَئيليّين كثيراً وفاقت اصطبار العليّ القدير ، ورفضوا الاستماع إلى كلام بِرِمْياه ירמיה وتحذيراته ، غادر هذا النّبي يروشَلايْم وارتحل إلى أرض بنيامين . فطالما كان لا يزال في المدينة المقدّسة ، ويدعو لها بالرّحمة ، بقيت بمنجاة . لكنه عندما مضى إلى أرض بنيامين ، أتى نِبوخَذْناصَّر נבכדנאצר لتدمير أرض يسرَئيل ، فنهب المدينة ، وسلبها نفائسها ، وتركها طُعمةً لألسنة اللّهيب تضطرم بها . وأرسل نبوخذناصَّر لتدمير يروشَلايْم قائده نبوزَرادان[2] נבזראדן (فيما بقي هو نفسه في بِبلاه) .

---

(1) كذا بالأصل ، والصّواب : بَتير ، بلدة محصّنة على مشارف القُدس بجنوبها الغربي .

(2) الواقعة في سفر الملوك الثاني ، الأصحاح 25 ، وفيه (25 : 8) : «وفي الشهر الخامس في سابع الشهر ، وهي السنة التاسعة عشرة للملك نبوخَذْناصَّر ملك بابل ، جاء نبوزَرادان رئيس الشُّرَط عبدُ ملك بابل إلى يروشَلايم ، وكل بيوت العظماء أحرقها بالنّار . وجميع أسوار يروشَلايم مُستديراً هَدَمَها كل جيوش الكلدانيين» .

لكنه قبل أن يأمر بتسيير الحملة ، سعى عن طريق علامات الفأل ، بحسب خُرافات عصره ، إلى التأكّد من مآل الحملة . فرمى عن قوسه سهماً وجّهه إلى الغرب ، فحاد السّهم صوب يروشَلايم . ثم رمى ثانيةً نحو الشرق ، فانطلق السّهم نحو يروشَلايم . فرمى ثالثةً ، راغباً بمعرفة الاتجاه الذي تقع فيه المدينة العاصية التي ينبغي تدميرها في هذه الدّنيا ، وللمرّة الثالثة توجّه السّهم صوب يروشَلايم .

فلمّا تمّ اجتياح المدينة ، سار مع أمرائه وقادته تجاه الهيكل ، وصاح مُستهزئاً بإله يسرَئيل : «فأنتَ إذاً الإله العظيم الذي يرتجف أمامه العالم ؟ ها نحن أولاء هنا في قلب مدينتك وهيكلك !» .

وعلى أحد جُدران المدينة عثر على أثر لسِنان سهم ، يدلّ على أن أحداً قد قُتل أو رُمي في هذا المكان ، فسأل : مَن قُتل هنا ؟» .

أجاب النّاس[1] : «زَخَريّا بن يهُوياداه ، الكاهن الأكبر ، كان لا يكفّ عن تقريعنا على آثامنا وكُفرنا ، فمللنا من كلامه وقمنا بإعدامه» .

ثم قام جنود نِبوخَذْناصَّر بسفك دماء أهل يروشَلايم ، بما فيهم كهنتُها وأهلوها ، شيوخها وشبابها ، ونساؤها ، وصبيتها الذين يحضرون الدّروس في مدارسها ، وحتى الرّضّع في مهودهم . ودام الاحتفال الدّموي حتى اشمأزّت منه حتى نفس قائد الوثنيين الأعداء ، فأصدر أمراً بإيقاف هذه المذبحة الجماعيّة . ثم أمر بجمع كافّة الأواني الذّهبية والفضّية من الهيكل ، وأرسلها بمراكبه إلى بابل ، ثم بعد ذلك أمر بطرح النّار في الهيكل .

---

(1) انظر مراثي يرمياه 2 : 20 حول مقتله على يد الملك يوآش . وفي هذه القصص الأسطوريّة الرّمزيّة أمثلة على نتاج الفكر البشري (لكهنة مجهولين) بتأليف مقاطع من أدب كهنوتي يتقولب وتصقله الألسنة والأقلام عبر العصور ، ليصير يوماً ما جزءاً لا يتجزأ من عقيدة دينية راسخة . فهنا مثلاً : أيُعقل أن يلحظ الفاتح المُحارب أثر سهم في جدار ويكترث لأمر كاهن أعدم ؟ لا يعدو الأمر كونه رواية أدبية بما فيها من حبكة وعِبرة وتشويق !
ثمّة علمٌ يختص ببحث المرويّات القديمة هو «النّقد النّصّي» Textual-Critique ، ظهرت به عشرات المؤلّفات حول تأثُّر التّوراه الكبير بتُراث بابل وكنعان والزّرادشتيّة .
يبقى سؤال : أيّة أديان هي التي داخَلَها فنّ «صناعة المُقدّس» هذا ؟

فتقدّم الكاهن الأكبر ، ولبس ثوبه وإيفُوده (אפוד الحلّة الحبريّة) قائلاً : «طالما أن الهيكل حلّ به الخراب ، فلا حاجة لكاهن يتولّي الصّلاة» ، وألقى نفسه في النّار فهلك . فلمّا رأى ذلك الفعل بقيّة الكهنة ممّن ظلّ على قيد الحياة ، حملوا كنّاراتهم وآلات عزفهم وحذوا حذوَ الكاهن الأكبر .

وأمّا مَن تبقّى من النّاس ممّن لم يقتلهم الجُند ، فقد أُوثقوا بقيود الحديد ، وحُمّلوا مع غنائم الظافرين ، وسيقوا إلى السّبي . أمّا بِرِمْياه[1] النّبي فكان عاد إلى يروشَلايْم وانضمّ إلى مصير إخوانه التُّعساء ، الذين أُخرجوا شبه عرايا . فلمّا صاروا إلى موضع يُعرف بـ «بيت كورو» ، ابتاع لهم بِرِمْياه ثياباً أحسن ممّا عليهم . وخاطب نِبوخَذْناصَّر والكلدانيين قائلاً : «لا تظنّوا أنكم بحَولكم وقوّتكم تمكّنتم من إخضاع شعب الله المُختار ، بل هي ذُنوبهم وآثامهم التي جعلتهم مستحقّين لهذه المِحَن والنّكبات» .

وهكذا ، تقدّم الشّعب في رحلة سَبْيهم وهم يبكون وينوحون ، حتى بلغوا أنهار بابل . فقال لهم نِبوخَذْناصَّر : «غنّوا يا قوم ، واضربوا لي بقيثاراتكم ، هيّا رنّموا الأناشيد التي اعتدتُم ترنيمها لربّكم العظيم في يروشَلايْم» .

فردّاً على هذا ، علّق اللّيويّون كنّاراتهم على شجر الصّفصاف قرب ضفاف النّهر ، كما هو مكتوب : «على أنهار بابل هناك جلسنا ، بكينا أيضاً عندما تذكّرنا صهيون ، على الصَّفْصاف في وسطها علّقنا كنّاراتنا» (مزامير 137 : 1) . ثم قالوا : «لو لم نتوانَ عن اتّباع أمر الله ورنّمنا بحمده مُخلصين لما وقعنا بين يديك . والآن كيف نرنّم لك الصّلوات والأناشيد التي لا تنبغي إلا لوجه الله الأزلي ؟ كما قيل : «كيف نُرنّم ترنيمة الرّبّ في أرض الغُرباء ؟» » (137 : 4) .

---

(1) في الترجمة العربية للأسفار اليهودية يرد اسمه : إرميا ، وهو غلط . فالاعتبار بمنطوق لغة الأصل وليس قولبات اللغات الأخرى . ولذلك كتبنا هنا : أبرَهام وليس إبراهيم ، ويسرَئيل وليس إسرائيل ، ومُوشيه وليس مُوسى ، ويروشَلايْم وليس أورشليم . هذا فيما يختص بنقل المقاطع العبرية من التّلمود ، أما فيما يخص ورود هذه الأسماء بتراثنا الإسلامي فالبديهي أن نلتزم المُعرّب (مثال : إسحاق ، يونس ، إلياس) ، وأمّا ما له تسمية عربية مُغايرة فنضبطها أيضاً (مثل : القُدس الشريف) . ونُذكّر أخيراً أن لكل لفظ ثلاثة معانٍ معياريّة : اشتقاقي ، وعُرفي ، واصطلاحي .

ثم قال القادة للحرّاس : «هؤلاء الرّجال أهلٌ للموت ، فهم يأبون إطاعة أوامر الملك ، فليموتوا» .

ولكن إذا بفلَطياه بن يهُوياداه يتقدّم ويخاطب نبوخَذْناصَّر قائلاً : «هَبْ أن قطيعاً سُلِّم إلى يديّ راعٍ ، فخطف الذّئب منه حَمَلاً ، أخبرني مَن يكون المسؤول أمام المالك عن الحيوان المفقود ؟» .

أجاب نبوخَذْناصَّر : «الرّاعي بالتأكيد» .

فأجاب فلَطياه : «إذاً أصغِ إلى كلامك الذي قُلتَه : «الله أعطى يسرَئيل إلى يديّ» ، فتكونُ مسؤولاً إذاً عمّن يُذبح» .

فأمر الملك بفكّ القيود عن الأسرى ، ولم يتمّ إعدامهم .

* * *

خراب يروشَلايم الثاني

كان مصير يروشَلايم الدّمار بسبب قَمْصا وبار قَمْصا ، وهذا هو مُؤدّى ما حصل :

يُحكى أن ثمّة رجلاً عمل وليمةً ، وكان صديقاً لقَمْصا ، لكنه كان يُبغض بار[1] قَمْصا . فبعث رسولاً إلى قَمْصا يدعوه إلى وليمته ، غير أن الرّسول أخطأ فسلّم الدّعوة لعدوّ سيّده ، بار قَمْصا .

فقبل بار قَمْصا الدّعوة ، وحضر في الوقت المعيّن لها ، لكن عندما أبصر المُضيف عدوّه يدخل بيته ، أمَرَه بالمغادرة على الفور . فقال بار قَمْصا : «لا ، طالما أنني حضرتُ فلا تُهنّي هكذا بالطّرد . وسوف أدفع لك ثمن كل ما آكلُه وأشربه» .

---

(1) بار لفظة آرامية : בַּר ، دخلت العبريّة وتعني : ابن . فلذا يُلاحظ في العبرية أن الأسماء قد ترد بصيغة : «بار» أو« بِن» (أي ابن) ، هذا ولم نُثبت ألف ابن في النّص حيث نقلها بصيغتها العبريّة בֶּן وليس العربيّة . أما اسم قَمْصا فآرامي : קַמְצָא جرادة .

فقال الرّجل : «لستُ أريد مالك ، ولا حُضورك هنا . فانصرف على الفور» .

لكن بار قَمْصا تمسّك بموقفه ، وقال : «أدفع لك جميع تكلفة وليمتك ، لا تدعني أُهان في عيون ضيوفك» .

فكان صاحب الدّعوة مُصمّماً على موقفه ، فلم يعُد أمام بار قَمْصا إلا أن انسحب من صالة الوليمة مُغضباً . وقال في قلبه : «عديدٌ من الحاخامات كانوا حاضرين ، فلم يتدخّل واحد منهم لصالحي ، ولذا فإن هذه الإهانة التي حلّت بي أمام أعينهم لا بُدّ أنها أرضتهم» .

فما كان من بار قَمْصا إلا أن بادر بالوشاية ضدّ اليهود أمام الملك ، قائلاً : «اليهود ثائرون في وجهك» .

فسأل الملك : «وكيف أتبيّن ذلك ؟» .

أجاب بار قَمْصا : «أرسل تقدمةً إلى هيكلهم ، فترى أنها تُرفض» .

فأرسل الحاكم عندها عجلاً صحيح البُنية ليُضحّى به من أجله في الهيكل ، ولكن بترتيب من بار قَمْصا أوقع الرّسول بالعجل عيباً ، فكانت النّتيجة بطبيعة الحال ، من جرّاء كونه غير مُلائم للأضحية (كما في سفر اللّيويين 22 : 21)[1] ، أنه قُوبل بالرّفض .

فلهذا السّبب بالذّات تمّ توجيه قيصر[2] لاحتلال يروشَلايم ، فأحكم الحصار على المدينة سنتين . وكان أربعة من أثرياء أهالي يروشَلايم قد أذخروا ما يكفي من الطعام للقيام بأوَد السّكّان أكثر من ذلك بكثير ، ولكن لمّا كان السّكّان كارهين لمحاربة الرّومان وخائفين منهم ، فقد خرّبوا الأهراء وتسبّبوا في مجاعة قاسية للغاية على المدينة .

---

(1) وهو : «وإذا قرّبَ إنسانٌ ذبيحةَ سلامة للرّبّ وفاءً لنذر أو نافلة من البقر أو الأغنام تكون صحيحةً للرّضا ، كلّ عيب لا يكون فيها . الأعمى والمكسور والمجروح والبَثير والأجرب والأكلف ، هذه لا تُقرّبوها للرّبّ ، ولا تجعلوا منها وقوداً على المذبح للرّبّ» .

(2) اجتاح فلسطين النائب الإمبراطوري ڤسپاسيان ، ثم احتل ابنه تيطوس القدس 70 م .

ويُحكى أن سيّدة من سَراة القوم ، هي مريَم بَت بايتوس ، دفعت بخادمها لشراء بعض الطّحين للاستعمال المنزلي . فألفى الخادم الطّحين قد بيع كلّه ، ولكن كان هناك بعض الجَريش الذي كان بوسعه شراءه . لكنه خفّ إلى الدّار ، لكي يستشير رغبة سيدته أولاً بخصوص ذلك ، فاكتشف عند عودته أن ذلك قد بيعَ أيضاً ، ولم يعُد بوسعه شراء شيء سوى بعض جَريش الشّعير الخشن . فلم يشأ شراء ذلك بغير إذن ، فعاد إلى الدّار ثانيةً ، ولكنه عندما عاد إلى الهُري للحصول على جَريش الشّعير ، كان ذلك هو الآخر قد نفد .

عندها خرجت سيّدته بنفسها لشراء الزّاد ، لكنها لم تعثر على شيء . وإذْ عضّها الجوع بنابه ، التقطت من الطريق قشرة ثمرة تين وأكلتها ، فاعتلّت من ذلك صحّتها وماتت . ولكنها قبل موتها رَمَت بكلّ ذَهَبها وفضّتها في الطريق ، وقالت : «ما نفعُ هذه الثّروة إن لم يكن بوسعي ابتياع الطعام بها ؟» . وهكذا تحقّق كلام يَحزَقْئيل في نبوءته (7 : 19) : «يُلقون فضّتهم في الشّوارع» .

فبعد خراب الأهراء ، أبصر الرّابي يُوحَنان أثناء مشيه في المدينة النّاس يسلقون القشّ في الماء ويشربون منه للتقوّت . فقال متعجّباً : «آه ، ويلٌ لي على هذه المحنة ! كيف يقدر مثل هذا الشّعب على مُقاومة جيش عظيم ؟» . فتقدّم إلى ابن أخيه بِن بَتّياح ، أحد زُعماء المدينة ، للحصول على إذن بمغادرة يروشَلايم . غير أن بِن بَتّياح أجاب : «لا مجال لذلك على الإطلاق ، لا يمكن لكائن حيّ أن يغادر المدينة» . فقال يُوحَنان متوسّلاً : «أخرجني إذاً كجُثّة» . فأذعن بِن بَتّياح لذلك ، وتمّ وضع يُوحَنان في نَعش ، وحُمل عبر أبواب المدينة ، وكان الرّابي إليعزَر والرّابي يهُوشُوَع وبِن بَتّياح يلعبون دور المُشيّعين . وجُعل النّعش في بعض الكهوف ، فبعد أن عاد الجميع إلى منازلهم ، قام يُوحَنان من النّعش ، وتوجّه إلى معسكر الأعداء . وهناك حصل من القائد على الإذن بتأسيس كلّيّة عُليا للشّريعة في يَبْنى[1] ، يكون الرّابون جَمْليئيل رئيساً لها .

---

(1) اشتهر مجمعها الدّيني اليهودي بعد خراب الهيكل 70 م ، أقام فيها الرّابي يُوحَنان بن زكّاي مركزاً للسّنهدرين ، كما أقام الرّابي جَمْليئيل يشيڤا (معهداً دينياً) سمّاه : כרם ביבנה «كِرم بيَبْنِه» (أي كَرْمُ يَبنى) . وكان الرّومان يسمّونها : يامنيا Jamnia .

سُرعان ما اجتاح تيْطوس المدينة ، وقتل من أهلها كثيراً ، وأرسل الآخرين سبايا إلى المنفى . ثم دخل الهيكل ، حتى قُدس الأقداس ، وهَتَك السّتار الذي يفصله عن الأقسام الأقلّ قُدسيّة . واستولى على الأواني المقدّسة ، وأرسلها إلى روما .

من خلال قصّة قَمْصا وبار قَمْصا هذه ينبغي لنا أن نتعلّم الحرص على عدم إهانة جيراننا ، وخاصّة عندما يؤدّي مثل هذا السّبب البسيط إلى التّسبّب بنتائج وخيمة . ولقد قال حاخامونا بأن مَن يعمل على إحراج جاره بإهانة ما ، فهو أشبه ما يكون بمَن يسفك دماً .

* * *

حَنّاه وعيالها السّبعة

في غضون الأيام الرّهيبة التي أعقبت سقوط المدينة المقدّسة ، زُجّ بحَنّاه[1] وعيالها السّبعة في السّجن .

وبحسب أعمارهم ، كانوا يؤتى بهم أمام الغازي الطاغية ، فيؤمَرون بتقديم فروض الطاعة ، بالسُّجود له ولآلهته .

فقال الابن الأكبر متعجّباً : «مَعاذ الله أن أسجد لوَثَنك . فوصايانا الإلهيّة تأمرنا : «أنا الرّبّ إلهُك» ، فلغيره أبداً لا أسجد» .

فسُحب مُباشرة إلى الخارج لكي يُعدَم ، وتمّ توجيه الطلب ذاته إلى أخيه ، وهو الابن الثاني . فأجاب : «أخي لم يسجد ، فأنا لا أفعل أيضاً» .

سأل الطاغية : «ولمَ لا ؟» .

أجاب الفتى : «لأن الوصيّة الثانية من الوصايا العشر تأمرنا : «لا يكُن لك آلهةٌ أخرى أمامي»» .

---

(1) يُعرف الاسم في العربية بصيغة : حَنّة . كحنّة أم مريم البَتول ، عليها السّلام .

فسرعان ما تلا مصرعه كلماته الجريئة هذه .

وقال الابن الثالث : «ديني يُعلّمني : «فإنك لا تسجد لإله آخر» (خروج - 34 : 14) ، فنعمَ المصير الذي ناله أخواي ، دون السّجود لك أو لأوثانك» .

وطُلبت الطاعة ذاتها من الابن الرّابع ، فقال بكل شجاعة وإيمان كإخوته : «مَن ذَبَحَ لآلهة غير الرّبّ وحده يهلك» (خروج 22 : 19) ، فبلا رحمة قُتل .

أمّا الفتى الخامس ، فقد قال واهباً نفسه الغضّة تكريماً لشعار بني يسرَئيل : «اسمع يا يسرَئيل ! الرّبّ إلهنا ربٌّ واحد» .

«لماذا أنت بكل هذا العند ؟» ، سُئل الأخ السّادس ، عندما مَثُل هو الآخر أمام الطاغية وازدرى بالطلب المطروح عليه .

فقال : «لأن الرّبّ في وسطك إلهٌ عظيم ومَخُوف» (تثنية 7 : 21) ، ومات في سبيل المبادئ التي اعتنقها .

ثم أُحضر الفتى السّابع الأصغر أمام قاتل إخوته ، فخاطبه برفق قائلاً : «أي بُنيّ ، تقدّم فاسجد لآلهتي» .

فأجاب الصّبي : «مَعاذ الله ! ديننا المقدّس يعلّمنا : «فاعلم اليوم ورَدِّد في قلبك ، أن الرّبّ هو الإله ، في السّماء من فوق وعلى الأرض من أسفل ، ليس سِواه» (تثنية 4 : 39) . فلا يمكن أبداً أن نبدّل إلهنا بسواه ، ولا هو يبدّلنا بأي شعب آخر ، لأنه كما هو مكتوب : «قد واعدتَ الرّبّ اليوم أن يكون لك إلهاً» (تثنية 26 : 17) ، فمكتوب أيضاً : «وواعَدَكَ الرّبّ اليوم ، أن تكون له شعباً خاصّاً[1]» .

ومع ذلك ، بقي الطاغية يتكلّم برفق وبكلمات رقيقة : «أنت لم تزل صغيراً ، ولم ترَ بعدُ إلا قليلاً من مباهج الحياة ومفاتنها ، بل أقلّ ممّا كان نصيب إخوتك . فافعل كما أطلب منك ، فيكون مستقبلك باهراً سعيداً» .

---

(1) تتمّة الآية : «وتحفظ جميع وصاياه ، وأن يجعلك مُستعلياً على جميع القبائل التي عملها في الثّناء والاسم والبهاء ، وأن تكون شعباً مُقدّساً للرّبّ إلهك ، كما قال» .

قال الصّبي : «الرّبّ يحكم دائماً وأبداً ، أما شعبُك ومملكتُك فزائلان . وإن كنتَ اليوم هنا ، فغداً تصير إلى قبرك . وإن كنتَ اليوم في العَلياء ، فغداً في أسفل سافلين . وأمّا الله العليّ القدير فدائمٌ باقٍ إلى الأبد» .

فتابع الإمبراطور : «أما ترى إخوتك أمامك صَرعى ؟ فيكون مصيرك مثلهم إن تمنّعت عن فعل ما أريد . أترى ، سأطرح خاتمي إلى الأرض ، فانحنِ والتقطه ، فأعُدُّ ذلك منك ولاءً لآلهتي» .

أجاب الصّبي بجَنان ثابت : «أتظنّني أخشى تهديداتك ؟ كيف أخشى بشراً أكثر من الله العظيم ، ملك الملوك ؟» .

سأل الإمبراطور : «فأين هو إلهك ، وما يكون بالضبط ؟ أثمّة إله يكون على وجه الدّنيا ؟» .

أجاب الفتى[1] : «أيكون هناك عالَمٌ بغير خالق ؟ عن آلهتك يُقال[2] : «لها أفواه ولا تتكلّم» . أما عن إلهنا فيقول مُنشد المزامير : «بكلمة الرّب صُنعت السّموات»[3] . وآلهتُك «لها أعيُنٌ ولا تُبصر» ، أمّا هو فله «أعيُن الرّبّ الجائلةٌ في الأرض !»[4] . وآلهتُك «لها آذانٌ ولا تسمع» ، بينما عن إلهنا مكتوب : «والرّبّ أصغى وسمع»[5] . وعن آلهتك قيل : «لها مناخر ولا تشمّ» ، بينما «تنسّم الرّبّ رائحة الرّضى»[6] . وآلهتك «لها أيدٍ ولا تلمس» ، أما إلهنا فيقول : «بيديّ أنا صنعتُ الأرض»[7] . وعن آلهتك مكتوب : «لها أرجل ولا تمشي» ، بينما يخبرنا زَخَريّا عن إلهنا : «وتقف قدماهُ في ذلك اليوم على جبل الزّيتون»[8] .

---

(1) خُطبة بليغة ، بودّنا – بعد جهد ساعتين في تخريج آياتها من الكتاب البالغ 1358 صفحة – لو نفهم كيف يُلقيها طفل على مسمع إمبراطور يهدّده بالقتل بعد مقتل 6 إخوة له !

(2) جميع هذه الإلماعات عن الأصنام مصدرها مزامير داود – 115 : 5–7 .

(3) سفر المزامير – 33 : 6 .

(4) سفر زخريّا – 4 : 10 .

(5) سفر ملاخي – 3 : 16 .

(6) سفر التكوين – 8 : 21 .

(7) سفر يشَعياه – 45 : 12 .

(8) سفر زخريّا – 41 : 4 .

ثم قال الإمبراطور[1] الظالم الغشوم :

«فإن كانت لإلهك حقاً هذه الصّفات كلّها ، فلماذا تُراه لم يخلّصك من سُلطاني ؟» .

أجاب الفتى[2] : «لقد نجّى حَنَنْياه ورفاقه من سطوة نِبوخَذْناصَّر[3] ، لكنهم كانوا صالحين ، وكان نِبوخَذْناصَّر ملكاً يستحقّ أن يشهد مُعجزة تقع . أمّا أنا فلستُ أهلاً للنّجاة ، ولا أنت قَمين باستظهار جبروت الله !» .

عندها ، أصدر الطاغية أمره : «فليُقتل الفتى كإخوته» .

فتكلّمت حَنّاه ، أم الفتية وصرخت : «أعطني طفلي أيها الملك الظالم ، دعني أضمّه بذراعيّ قبل أن تُهلك روحَه الغَضّة الطاهرة !» .

وألقت بذراعيها على الفتى ، وحضنته بقوّة إلى حضنها ، لاصقةً شفتيها بشفتيه . وصاحت : «خُذ روحي ، اقتلني أولاً قبل طفلي» .

فأجاب ساخراً بها : «لا ، ليس لي فعلُ ذلك إذ تحظّره شرائعكم[4] : «وأمّا البقرة أو الشّاة فلا تذبحوها وابنها في يوم واحد» » (ليويين 22 : 28) .

فأجابت الأم : «أوّاه ، ويلٌ لك من حافظٍ للشّريعة حريصٍ عليها !» . ثم شدّت إلى صدرها جسد طفلها ، وقالت : «امضِ يا حبيبي ، فَقُلْ لأبرَهام إنّ أُضحيتي فاقَتْ أُضحيته . فإن أقام مذبحاً ليضحّي عليه بيصحاق ، فأمّك أقامت سبعة مذابح ، وضحّت بسبعة من أمثال يصحاق في يوم واحد . وهو كان في معرض تجربة فحسب ، أمّا أمّك فقد امتُحنت بالفعل»[5] .

---

(1) لم يكن تيطوس إمبراطوراً ، بل كان أبوه ڤسپاسيان (69–79 م) ، خلفاً لنيرون .

(2) يلوح لنا أن هذا الفتى لا يتجاوز – بحسب الرّواية – 5 أو 6 سنوات ، فيكون منه كل هذه الأجوبة القويّة المُفحمة لتيطوس ؟ عَودٌ على نظريّة «صناعة المُقدّس» .

(3) انظر خبر ذلك في سفر دانيئيل ، الأصحاح الثالث .

(4) إذا كان تيطوس يحفظ أسفار اليهود عن ظهر قلب ، فلا عجب أن يُلقي الطفل خُطبة تتضمّن 10 آيات ، كل واحدة منها في موضع مختلف من الأسفار !

(5) القصّة قاسية جداً ، الهدف من قيمتها الرّمزية في التّلمود تجسيد ما وقع لليهود من جَور وعَسف في تاريخهم ، بغرض الاستفادة من ذلك في شدّ أزرهم .

وبعد إعدام ابنها الأخير ، غَدَت حَنّاه مجنونةً فاقدةً للعقل ، فألقت بنفسها من سطح منزلها . ولمّا سقطت فارقت الحياة على الفور[1] .

فطُوبى لكم ، يا أبناء حَنّاه السّبعة ، وها هو ثوابكم في الآخرة ينتظركم . بنِعْم الإخلاص عبدتُم إلهكم ، وإذ تجتمع أمّكم بأبنائها البَرَرة في الآخرة ، ففي النّعيم خالدةً مُخلّدة تُقيم .

* * *

(1) القصّة بنسبة عريضة من التفاصيل استعارها التّراث الدّيني البيزنطي بقصّة القدّيسة صوفيّا Η,αγια Σοφια ، واستشهاد بناتها الثلاث : إيمان ومحبّة ورجاء ، في سبيل الإيمان المسيحي ، ضمن موقف مشهدي مؤثّر . نعود دوماً للتذكير بمسألة التّواتر والاستنساخ في التّراث العرفاني الرّوائي لقصص الأولياء والصّالحين والشّهداء بين الأديان ، والخط غير المرئي (أو المُهمل) بين كون الرّواية مُسنَدةً أم مَنحولة . لكن المُثير أن الرّواية المَنحولة (رغم وضعها) قد تكون أجمل وأبعد تأثيراً في نفوس المؤمنين !
وبالإجمال فإن صيغة الخطاب الغنوصي الموجّه للعامّة بين الدّيانات تكاد تكون واحدة ، ولا يمكن بحال من الأحوال إنكار واقع الاستعارة والاقتباس المُتبادل .